محمد عبد القوي مصيلحي

رواية

بورتريه

لا توجد أياد بيضاء في هذا المنجم

بورتريه

بورتريه
محمد عبد القوي مصيلحي
تصميم الغلاف :
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٢٢١٨
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٢٩- ٧

دار اكتب للنشر والتوزيع
اكتب
OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ – ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ، خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .
هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com
Facebook : دار أكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٢م

بورتريه

"لا توجد إيادٍ بيضاء في هذا المنجم"

محمد عبد القوي مصيلحي

رواية



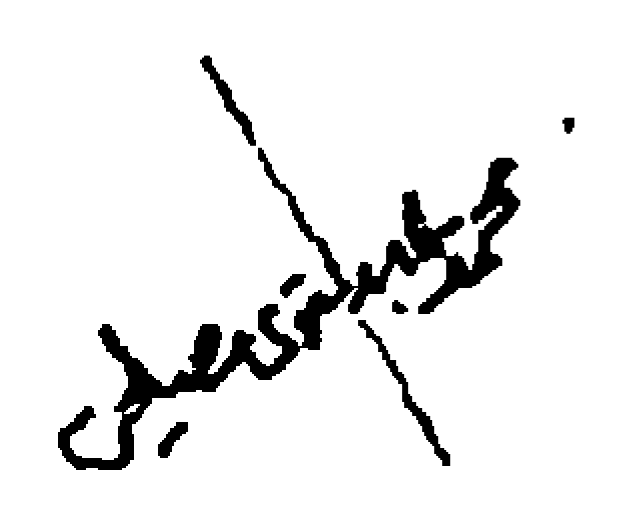
دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى صديقي الأقرب، القاص والفنان الرقيق إبراهيم صلاح.. الذي ألهمني البذرة الأولى لهذه الرواية، والذي لو لا مراقبته لي وتشجيعه ودفعه المستمر، لما كتبت حرفا.

وإهداء إلى شقيقي العزيز أحمد.. وإلى أبي وأمي، اللذين قدما لي كل الحب..

شكرا لكم جميعا، لولاكم ما كنت.



نيرمين

- "اسمي نيرمين أبو الحسن.. سكندرية المولد ومقيمة بالقاهرة.. حاصلة علي بكالوريوس فنون تطبيقية.. أهوى الرسم والموسيقى وحاليا أقوم بإعداد دراسة عن التصوير الزيتي.."

- "علي حد علمي، لم يطلب منك أحد تقديم سيرتك الذاتية!"

- "عمري ٢٣ سنة.. متوسطة الجمال.. أقيم مع والدتي د.سها عوّاض، أستاذ الجراحة بكلية طب جامعة حلوان.."

- "وتقدسين الحياة الزوجية، وتشاركين في الأثاث..!"

اتسعت عيناها العسليتان بشكل مخيف، وقالت بلهجة تنذر بالويل..

- "لا تغضب مني.. ولكن هذه ببساطة هي أنا.. هل يمكن أن أعرف من أنت..؟!"

تجمد الفتى في مجلسه أمامها، علي مائدة جانبية في ذلك الكازينو البسيط علي ضفة النيل.. لا يستطيع الرد، ولا يعرف إن كانت جادة أم مازحة..

- "نيرمين، هل جننت؟!.. لقد كنت عاقلة منذ خمس دقائق لا أكثر، ماذا جرى لك..؟"

ومال نحوها عبر المائدة هامسًا في توجس..

"هل أغضبتك دون قصد؟!.. أنا..."

قاطعته بنفس اللهجة..

"أنت لست إلا رأفت عبد الفتاح.. مجرد خريج إعلام.. ليست لديك أي ميول فنية أو علمية.. لم تخرج من دراستك بشيء واحد نافع.. عاجز عن التمييز بين شكسبير وشفيق جلال.. غير قادر على التفريق بين الفن المسرحي والأراجوز.."

ثم مالت نحوه بشكل مفاجئ، وصاحت في ثورة جعلته يتراجع خائفًا..

"هل تنكر أنك تافه وسطحي وممل، ومازلت تتابع حلقات سلاحف النينجا؟!!"

أصابه العجز أمام هذا الهجوم البركاني المفاجئ.. ورمقها بعينين متسعتين، وقد شل لسانه..

"بل إنك – تخيل – لست من مواليد الإسكندرية..!"

ثم كورت أنفها الدقيق، ورفعت حاجبها الأيسر، بينما شعرها يتطاير مع حركات رأسها، وقالت..

" قسم أول شبرا الخيمة.. لقد رأيت بطاقتك..!"

رفع بصره إليها، وهو حائر ما بين الغضب والدهشة..

"نعم!.. وهل أصبحت شبرا الخيمة عارًا أم ماذا..؟!!"

ردت في كبرياء قاتل..

"يكفي إنها ليست الإسكندرية..!"

مسح وجهه بكفه، وتنهد مستسلمًا وهو يقول في لوم..

"يا للجنون..!"

ثم نهض من مقعده، رافعًا بنصره الأيمن أمام ناظريها..

"فاتك أن تذكري إنني خطيبك منذ عام ونِصف العام.. إننا لم نلتق على باب المكان.. أليس كذلك؟!"

قالت في عناد..

"نسيت!"

هنا كان الكيل قد فاض به، فجاء دوره في الانفعال والصراخ.. ليقول وقد بدأ الناس - علي الموائد المجاورة لهم - في ملاحظة الشجار..

"نسيت!.. ما شاء الله.. حسنًا.. ولكن إن كنت حقيرًا إلى هذا الحد، فلماذا قبلت خطبتي منذ البداية..؟! ولماذا احتملت همجيتي ومللي وتفاهتي طيلة هذه الفترة.. لماذا؟!"

قالت، وقد أضاءت عيناها ببريق غير مطمئن..

"سؤال وجيه.. وإجابته في غاية البساطة والوضوح والاختصار.."

وأمام عينيه المذهولتين، نزعت من إصبعها خاتمه، وألقته إليه، وهي تقول ناهضة ومغادرة..

"الإجابة: لا شيء!"

ولم يستطع رفع بصره عن الخاتم، الذي ظل يدور فوق أرضية المكان الرخامية.. الخاتم الذي انفصل فصه الزمردي، وطار حتى اختفى بين قوائم الموائد..

الخاتم الذي ظل صدى رنينه يدوي في أذنيه، وبين جنبات عقله إلى الأبد....

***

".. اليوم هو السادس من نوفمبر، الذي يوافق عيد ميلادي رقم٢٣.. لكنني وحيدة.. أشعر بتعاسة غير عادية.. إنه — على قدر ذِكري - عيد ميلادي الأول، الذي يمر دون هدية واحدة،

ولا حتى مجرد تهنئة.. ماما لديها عمل لا ينتهي في المستشفى.. بابا قد توفي منذ أعوام مضت، وليس لدي أشقاء.. حتى صديقاتي وزميلات الدراسة، أغلبهن قد تزوجن.. والباقيات منهن قد ضعن في زحام الحياة التقليدي..

هناك بنات خالتي مها.. وهن ثلاث فتيات مخبولات، يشبهن طاقم أكواب العصير.. بثيابهن المتماثلة تمامًا حتى في اللون – وهن توأمات بالمناسبة – وحديثهن الممل، الذي يدور دائمًا وأبدًا حول عريس ما، يتعاركن عليه..!

وهناك ابن عم لي، ولكني نسيت اسمه للأسف!!

في الحقيقة، لم يكن لدي سوى رأفت خطيبي.. السابق!

لقد تخلى عني النذل.. وتركني أتركه......!

لقد كان دائمًا ما يذكرني هو بذلك التاريخ، على مدار الأعوام الأربعة التي شاركني العمل خلالها في ذلك المكتب الدعائي، قبل خطبتنا..

كنت معتادة نسيان ذلك اليوم من كل عام.. لكني غير مندهشة لأنني تذكرته في هذه المرة وحدي.. كان يحبني، لكنني كنت في منتهي الغباء.. والآن، من سيقول لي عيد ميلاد سعيد..؟!

جرس الهاتف يدق.."

***

تركت نيرمين مفكرتها الصغيرة فوق مائدة السفرة، وبين أوراقها وضعت القلم الرصاص، ثم نهضت لتجيب نداء الهاتف وقد ملأ الأمل في تهنئة أو كلمة طيبة قلبها..

قالت متلهفة..

-"الو............"

-" كل سنة وأنت طيبة يا فراولاية..! "

غريبة.. إنها كلمة رأفت المعتادة، ولكن مع فارق بسيط للغاية........!!

- "لكنك لست رأفت..!"

- "بالطبع لست رأفت، من قال العكس؟!"

الصوت.. يبدو وكأنه..........

- "من أنت؟!"

- "افتحي الباب، واقبلي هديتي أولًا.. "

- "يجب أن أعرف................"

بتر عبارتها صوت الصفير المتقطّع، الذي يفيد بأن ذلك المجهول قد وضع السماعة.. وقبل أن تداعب الهواجس عقلها، تصاعد رنين جرس الباب..

ركضت حافية القدمين بسرعة، لتفتح الباب.. إلا إنها لم تجد أحدًا هنالك.. وتلفتت يمنة ويسارًا في حيرة، قبل أن تقرر غلق الباب يائسة. لكنها – قبل أن تفعل – عثرت علي ذلك الشيء..

علبة خشبية صغيرة، كانت موجودة أمام عتبة الباب، انحنت تلتقطها في حذر وشك..

كانت عبارة عن صندوق مغلق بقفل بلاستيكي، يشبه لعب الأطفال.. وملصق عليه من الخارج بطاقة، جاء فيها بخط عريض مطبوع:

(لا تحزني علي ما فاتك..

بل اصنعي من جرح الماضي علاجًا للمستقبل..

يكن حاضرك سعيدًا باسمًا!)

التوقيع/ سلفادور دالي

ظلت لدقائق تتأمل البطاقة، دون أن تحاول فتح ذلك الصندوق الغامض.. وبعد فترة، تنبّهت لكون باب الشقة لم

يزل مفتوحًا، فدخلت وأغلقت الباب، ثم وضعت الصندوق أمامها على المائدة..

كان مستطيلاً، في حجم صندوق دمية صغيرة، لكنها استبعدت الفكرة الحمقاء.. وداعبت بأناملها الرقيقة القفل الصغير.. كان رقميًا يحتاج لإدخال ثمانية رموز..

بلا تردد ضبطت الأرقام كالتالي: ١٩٨٤١١٠٦

كانت تتفاءل بهذا الرقم، لأنه تاريخ ميلادها.. ولسبب ما كانت محقة!

(تك...!)

انفتح القفل البلاستيكي الصغير بصوت تكّة خفيفة، وسمح لها برؤية محتوى الصندوق..

كان يحتوي على قطعة من المشمع الأسود، ملفوفة بإحكام حول بعض فُرَش الرسم، من النوع الذي يستخدم مع الألوان الزيتية، وكانت الفُرش تبدو ثمينة وفخمة المظهر.. كما كان يبدو عليها القِدَم من ناحية العصي الخشبية؛ التي أعيد تلميعها حديثًا.. لكن شعرها كان بحاله ممتازة..

وفكرت أن صاحب الهدية لابد أن يكون هو رأفت نفسه..

إنها تدرك جيدًا كم يهواها.. ربما لم يقدر علي تفويت مناسبة كهذه دون أن يهنئها، لكن كرامته أبت عليه أن يصرح لها بذلك بعد ما فعلت به.. ممكن؟!!

لم لا....؟

بالتأكيد لن يتصل بها مباشرة، ويخبرها أنه رأفت، وأنه يرغب في سماع صوتها..

امتلأت رأسها بالفكرة، حتى إنها قررت أن تتصل به وتعتذر له عما بدر منها تجاهه منذ أسابيع قليلة..

وفي لحظات، كانت ترفع سماعة الهاتف، وتطلب الرقم الذي تحفظه عن ظهر قلب..

"الو........"

- "من يتكلم؟"

أصابها رده الحاد بارتباك، لكنها قررت أن تواصل للنهاية..

قالت راجفة الصوت:

"أنا نيرمين.."

- "نيرمين من؟!"

"نيرمين أبو الحسن يا رأفت.. إنك لا تعرف أي نيرمين غيري!"

- "عفوًا، لكنني لا أعرف أي أنثي تحمل هذا الاسم أصلاً!"

"من فضلك يا رأفت........"

قاطعها الصوت بفتور..

- "من فضلك أنت يا أخت نيرمين أيًا من كنت، بوسعك الاتصال في أي وقت آخر، لأنني أشعر بالنعاس.. سلام!"

لخمس دقائق، ظلت أصابعها ملتفة حول سماعة الهاتف غير قادرة علي إعادتها، وقد انهمرت الدموع من روحها، لتغرق كل شيء في عالمها الضيق الكئيب..

كلا، لم تبك عيناها؛ وإن فعلت لاستراحت...

كانت تشعر وكأن هناك من ألقى فوق صدرها أطنانًا من القش، فلم تعد تقدر على التنفس.. شعور قاسٍ، وكأن رئتيها قد امتلأتا بالدخان.. وغمرها شعور قاتل بالاختناق، وبأنها ستنفجر بعد قليل..

إنها منذ ولدت لم تتلق مثل هذه الإهانة، و لم تُعامل بمثل هذا الجفاء.. ولربما كان الأمر ليصير أفضل، لو أنه صفعها علي وجهها في ميدان عام.. لكن المشكلة أنها.. أنها.....!!

وصدرت منها صرخة عالية، ممتلئة بالمرارة والألم.. وتمنت لو أنها ماتت مسمومة أو محروقة، قبل أن تُقدم علي هذه المكالمة الهاتفية..

لحظات قليلة مرت، ثم رن جرس الهاتف من جديد.. انتفضت واقفة وهي ترمقه غير مصدقة..

"مستحيل.."

كانت متأكدة من أنه هو.. سوف يختلق لها أي عذر.. سيقول إنها أيقظته من النوم، ولم يكن يعي ما يقول.. سيظل يعتذر لها ويسترضيها، حتى ترضى وتنسى إساءته.. لكنها كانت تعلم السبب الحقيقي..

إنه غاضب منها، لكنه لم يصدق فكرة أنها اتصلت لتعتذر له وتعيد المياه لمجاريها.. وهو الذي أضاع الفرصة بيديه..

مرحى!.. لقد ندم الأسد العجوز على فعلته..

أراحتها الفكرة كثيرًا، وخففت من حزنها، بينما كان الهاتف مستمرًا في الرنين..

"دعيه (يرنّ) قليلاً.."

إن انتظاره لتلك اللحظات القليلة، لهو عقاب كاف له.. لقد ندم على ما قال في المكالمة الأولى، لكنها ستجعله يندم علي المكالمة الثانية كذلك..

- "ألو.."

- "مرحبًا مرة أخرى يا فراولاية..!"

استشاطت غضبًا، وكادت أن تموت كمدًا.. وصرخت وقد أوشك مخها أن يسيل عبر طاقتي أنفها، من فرط الكيد والانهيار..

"أنت من جديد؟!"

"ألم أنصحك ألا تحزني على ما فاتك؟.. لماذا لم تنصتي لي جيدًا حين حذرتك؟.. لقد كنت أعلم كم هو حاقد عليك، وكم يرغب في إيذائك بعدما حل به على يديك.. لكن رأيي أنك لم تكوني مخطئة، حين قررتِ التخلي عنه.. إنه إنسان مريض اجتماعيًا.. يسيطر عليه دائمًا هاجس وحيد، اسمه (الانتقام).. ولقد كان بالفعل آخر من يناسبك!"

كان يتحدث بهدوء، وبصوت ناعس منوم، لكنها لم تجد الفرصة لإخراج أي تعبير صوتي.. كانت ترغب في سماع المزيد..

"لقد تحوّل هذا الفتى إلى شخص كريه غير محتمل.. هل رأيت كيف أجاب محاولتك لإعادة الود فيما بينكما؟.. يا للجحود!.. لقد أهانك إهانة لا تغتفر.. ذبح مشاعرك بسكين بارد بلا رحمة.. في الحقيقة - ولا تغضبي - إنك الأنثى الوحيدة التي رأيتها تتلقى مثل هذه الإهانة وتظل حية!.. بل ويظل لديها أمل في إصلاح الأحوال من جديد.. إنك نادمة، ألست كذلك.. اعترفي!"

كان حديثه الناعم الملتوي، يسري في عروقها ببطءٍ كسمّ الأفاعي..

قالت كالمغيبة وقد دارت رأسها..

"لست نادمة.....!"

"بل نادمة.. لن يمكنك الكذب علي أبدًا، فأنا أعرف!"

شخصت عيناها، وقالت بنفس اللهجة، مضافًا إليها بعض الإصرار..

"سأقــتــله.....!"

طقطق بلسانه معترضًا..

"تــــؤ تــؤ تـــــؤ!.. للمرة الثانية تنسين كلماتي.. لو فعلت هذا، فلن تصنعي من جرح الماضي علاجًا للمستقبل،

وسيكون حاضرك عبارة عن كابوس لا ينتهي.. وكل هذا بسبب شخص لا يستحق منك أدنى اهتمام.. لكنك – مع الأسف – مازلت تحتفظين له بتلك اللوحة في حجرتك.. هل تذكرين؟.. إنها لوحة رائعة، لأنك فنانة رائعة.. ولكن لا يمكنك إنكار أن موضوعها مخجل بعض الشيء.. خاصة بعدما حدث بينكما!!"

تذكرت إنها قامت بعمل صورة زيتية لـــ "رأفت" في أول فترة خطبتهما، وكانت الصورة علي درجة فائقة من الإتقان، لدرجة أنها أحبتها كثيرًا، واستأثرت بها لنفسها.. وهي – حتى الآن – مازالت معلّقة في حجرتها بالفعل..

شعرت بالغضب يعصف بها، ويكاد يقتلعها من مكانها.. صرخت..

"سأمزقها إربًا.. سأحرقها وأدفن بقاياها في قاع البحر.."

"إنك تعدّين دراسة أكاديمية عن التصوير الزيتي.. لدي فكرة لا بأس بها.. سوف نصنع معًا من جرح الماضي علاجًا للمستقبل.."

قالت كالنائمة..

"ما المطلوب..؟!"

"لا شيء، فقط أعدّي أدواتك وألوانك، ولا تنسي استخدام هديتي!"

"ماذا سأفعل بالضبط؟!"

"لا تقلقي من هذه الناحية.. إن الفُرَش تعرف جيدًا ما يجب عليها القيام به.. يمكنك طاعتها وأنت مطمئنة تمامًا.. هل أنت مستعدة؟!"

"مستعدة!.. ولكن لأي شيء بالضبط؟!"

"لكي نصنع من جرح الماضي..."

".. علاجا للمستقبل!"

"برافو!.. هل نبدأ الآن..؟"

رأفت

هو اسمي، رأيت هذا في بطاقتي الشخصية، كما علمت أنني أعزب، مقيم بمحافظة القليوبية.. وكانت مهمتي الكبرى في هذه اللحظة هي إيجاد مرآة، حتى يمكنني التعرف على شكل ملامح وجهي..!

مع الأسف، صورة البطاقة منزوعة من مكانها، فلن أعرف للأبد إن كان هذا الشارب الذي استشعرته أناملي معتادًا لدي، أم أنه نما لي مؤخرًا خلال فترة الغيبوبة الأخيرة..

إن فقدان الذاكرة شيء سخيف بحق، خاصة حين تكون وحدك.. نصيحة قلبية: لا تحاول فقدان الذاكرة وأنت وحدك مهما كان الثمن..!!

كان الوقت ليلًا، حين أفقت لأجد نفسي هنا، نائمًا ممددًا على ذلك الرصيف.. يبدو أنه طريق مقفر أو منسي، لأنني لم أصادف سيارة واحدة، أو أقابل أي شخص مرّ من هنا منذ استيقظت حتى الآن.. ليتني أعرف أين أنا وما الذي أتى بي إلى هنا..

سرت مسافة طويلة على غير هدى.. كل المحال مغلقة..كل الشرفات والنوافذ مظلمة.. أستطيع رؤية يدي بصعوبة تحت ضوء مصابيح الإنارة الصفراء الميتة بطول الطريق..

كانت المدينة تبدو نظيفة وجميلة، ولكن.........

أين الناس..؟!!

هل هي مدينة مهجورة؟.. هل حلّ بها نوع من الأوبئة مثلًا.. أم أن الوقت قد تأخر على خروج الناس من ديارهم.. مهما كان الوقت متأخرًا، لابد أن ترى شخص ما.. تسمع صوت مذياع.. على الأقل تقابل بيتًا واحدًا مضاءً من خلف خصاص نافذة.. دعنا من الناس والنوافذ وأجهزة المذياع.. أين لصوص هذه المدينة؟!!

وألقيت نظرة على معصمي.. لم أجد ساعة هنالك.. وظللت ماشيًا، لعلى أقابل أحدًا، أو ينقذني ضوء الفجر الوليد..

"رأفت..!"

كان الصوت عاليًا، كالصراخ في قلب هذا السكون المميت.. استدرت مفزوعًا جهة مصدر الصوت، لأجد ذلك الشخص واقفًا بانتظاري..

كان طويل القامة، قصير الشعر، مفتول العضلات بغير إفراط في الوزن. وكان يرتدي ثيابًا صيفية خفيفة، لا تناسب هذه الساعة من اليوم، ولا هذا التوقيت من العام!

دنوت منه أكثر، كي أتمكن من رؤية وجهه.. لكنني – لسبب ما – عجزت عن تبين ملامحه..

– "هل ناديتني..؟!"

– "وهل أنت رأفت حقا؟.. ما الذي يجعلك واثقًا في تلك الورقة بجيب قميصك إلى هذا الحد؟!"

غمرتني الدهشة لأقصى حد.. أنى له أن يعلم......؟!

"من أنت.. وماذا تريد مني؟!"

"أبدًا.. أنا مجرد شخص، لديه أمانة ما، لابد وأن يسلمها إليك شخصيًا..!"

ومن جيبه أخرج خنجرًا فضيًا جميل الشكل.. وقبل أن أفهم، كان قد قطع مسافة الثلاثة أمتار بيني وإياه في لحظة واحدة، ورفع خنجره أمام وجهي.. ثم – بحركة خاطفة – قام بسحب الخنجر.. وشعرت بالدم ينساب دافئًا بطول خدي الأيسر..

انتابني ألم شديد.. حتى إنني استيقظت بصرخة عالية، أيقظَت كل من في الدار.. ولم أهدأ حتى بعد أن تلقت عيناي مناظر خزانة ثيابي وفراشي ومكتبي، وكل مفردات حجرتي..

وبعدما انتهى الكابوس.. لم أهدأ.. لأن الألم كان لم يزل مستمرًا بعد استيقاظي....!

***

سارعت نحو مرآة الحمام الملحق بحجرتي الصغيرة.. الآن انتفى الشك.. الجرح موجود وواضح تمامًا.. بل وطازج أيضًا!

لم تكن هناك دماء؛ بل شق طويل، ممتد من أسفل عيني اليسرى حتى جانب فمي..

مستحيل.. كيف حدث هذا ومتى، ولماذا لم أر أي أثر للدم.. ترى هل سيترف بعد قليل؟

لامسته بطرف أناملي، فارتفع صدى الألم بداخلي مخترقًا الضلوع.. ومعه ارتفعت صرختي..

فوجئت بـــ "رامز"، شقيقي الأصغر، يقتحم الحمام ببنطلون البيجامة والفانلة الداخلية، وقد امتلأ وجهه رعبًا..

"ماذا بك يا رأفت..؟!"

أشرت إلى وجهي في لوعة..

"ما هذا؟!!"

توقف اندفاعه بصورة مفاجئة، وطفق يتأمل وجهي كأنه يراه لأول مرة..

"من فعل بك هذا.. لقد كنت سليمًا بالأمس..! "

ظل يرمقني في بلاهة وهو عاجز عن النطق، حتى اعتراني الغيظ، فدفعته بكتفي و أنا أغادر الحمام..

"أفسح الطريق..!"

***

قابلتني أمي عند باب حجرتها وهى مغمضة العينين..

- "هل كنت تتعارك مع شقيقك يا رأفت ..؟!"

ثم لاحظت أنني بثياب الخروج - وكنا في السابعة من صباح الجمعة - و رأت اللاصق الذي وضعته على وجهي..

"إلى أين..؟"

"لدى عمل هام...."

"عمل يوم الجمعة؟.. وما هذا..؟!"

"لا شيء.. اطمئني..!"

نادتني في جزع و أنا أفتح الباب متعجلاً..

"رأفت..!"

"لا تخافي يا أمي.. لن أتأخر.."

***

"كما عهدتك دائمًا، لا نحصد من ورائك سوى القلق.. لماذا اتصلت بي في هذه الـــــــــ.....!!"

فجأة توقف صديقي د.سمير درويش عن الحديث مذهولًا، حين رأى منظر وجهي المغطّى بالضمادات، وأنا واقف أمام باب شقته في هذه الساعة المبكرة من يوم إجازته..

"يا خبر!!.. تفضل يا رأفت، أدخل.. ما لوجهك..؟!"

"سأشرح لك كل شيء، بينما نشرب القهوة.."

"هل تناولت إفطارًا؟"

"ليست لدي رغبة في الأكل.."

"إذن سنتناول معًا لقمة صغيرة، بعدها أعرف كل شيء.."

***

"إذن أنت تحاول إقناعي بأن...."

"قسمًا بالله، هذا هو ما حدث بالحرف الواحد....!!"

صحت بها نافد الصبر لعدم قدرته على تصديقي، بعد أن رويت له القصة أكثر من مرة..

"حسنًا، ولكن أرجوك ألا تنفعل.."

وتناول شهيقًا عميقًا، وهو يتذوق قدح قهوته متذمرًا..

"هل أنت واثق أن رامز لم...؟!"

"ماذا تقول يا سمير!.. إن رامز مجنون بالفعل، ولكن ليس إلى هذا الحد!!"

"على كل حال، ليست المشكلة في الكابوس كما قلت.. ربما جاء الكابوس كنتيجة للجرح، وهذا هو الأرجح بالمناسبة.. المشكلة الآن: من أين أتى هذا الجرح أصلاً..؟!"

ثم أتبع وقد تذكر..

"قلت لي إنك رأيت شخصًا في الحلم، لكنك لم تر ملامح وجهه.. أليس كذلك..؟"

"بلى، لكنني تذكرته فور استيقاظي مباشرة.. لذلك اتصلت بك..!"

"وهذا الشخص هو الذي تسبب في إصابتك بالجرح؟.. أعني في الكابوس..؟"

"نعم..!"

"من هو هذا الشخص.. هل أعرفه؟"

"أظن ذلك.. إنه أنت..!!"

تجمد للحظات دون أي انفعال، قبل أن يقول..

"لكنك قلت منذ لحظات إنك لم تر وجه الفاعل..!"

"وقلت بعدها إنني تذكرته عندما أفقت من الكابوس.. ما المشكلة في ذلك..؟!"

قال بارتياح..

"لا مشكلة على الإطلاق.. هكذا الكوابيس دائمًا، لا قواعد منطقية لها.. ما علينا!.. لنكن أكثر حذرًا فيما بعد..!"

لم أفهم مقصده في المقطع الأخير من عبارته، فسألته عما يقول..

"أعني لنحرص على ألا يحدث هذا ثانية.. ما مشكلتك..؟!"

"مشكلتي هنا..!"

و أشرت إلى وجهي....

"لا تقلق، إنها بسيطة للغاية.. وأولى مراحل العلاج اقتناعك بأن هذا الجرح حدث بشكل طبيعي تمامًا.. ربما جرحت نفسك ونسيت، أو ربما فعلها أحدهم دون تعمد أثناء نومك.. المهم أن تحاول نسيان الأمر.. و تأتي المرحلة الثانية، وهي محاولة

علاج الجرح دون أن يترك أثرًا.. أعرف جراح ليزر عبقري يمكنه إنهاء مشكلتك في دقائق.."

"رائع!.. وكم تبلغ تكلفة تلك العملية..؟"

"أعتقد أنه – مجاملة لي – لن يطلب أكثر من عشرة آلاف دولار..!!"

"وأنا أعتقد أن الأثر الذي سيتركه الجرح لن يكون بشعًا إلى هذا الحد.. هل تمزح يا سمير..؟!"

"أنا طبيب نفسي.. ولكن من حسن حظك أن لي خبرة لا بأس بها بالجراحة.. أعتقد أن لدي هنا بعض الخيط الجراحي.. سأرى ما يمكن عمله.."

***

كان سمير قد فشل فشلًا ذريعًا في معالجة الجرح.. ليس لقلة خبرة، ولكن لأن الخيط كان يقع من تلقاء نفسه بعد دقائق من عمل الخياطة..!

هل هي لعنة؟!

والآن قد مر أسبوع كامل دون جديد.. لا الجرح التأم، ولا تلوث.. ولا حتى نزف قطرة واحدة من الدم!

كان الأمر عجيبًا.. لكنني لم أندهش، بل حاولت تناسي الأمر مؤقتًا، حتى لا أصاب بالجنون.. وكإجراء دفاعي آخر، قررت الاعتصام بالمترل، واعتزال العمل والأصدقاء حتى ينتهي هذا الكابوس أو أجد له حلاً.. لكني لم أجد واحدًا للأسف..!

كان الألم قد زال تمامًا.. لم أعد أشعر بالجرح.. لكن المصيبة الكبرى أنه لا ينوي - كما يبدو - أن يختفي عما قريب..

قضيت الأيام الأخيرة في حجرتي، أقرأ الجرائد وأتلقى مكالمات هاتفية من سمير، يحاول خلالها الاطمئنان على حالة الجرح.. أو يبشرني بقدوم جراح ليزر صديقه من لندن، يتقاضى ٩٠٠٠ دولار فقط!

حتى جاء الخميس.. أيقظتني أمي في العاشرة صباحًا، وقالت إن لدي ضيوف يرغبون في رؤيتي..

"من..؟"

ابتسمت وقالت بلهجة ماكرة، مما جعلني أوقن من أن هؤلاء الضيوف ينتمون للجنس اللطيف..

"ومن أين لي أن أعرف؟!.. اخرج لتقابلهم بنفسك..!"

دعوت الله أن يكون الأمر خيرًا.. فلا تنقصني مصائب جديدة!.. قمت مستبدلاً بمنامتي ثيابًا لائقة.. وأعدت تثبيت اللاصق من جديد، بعد أن غسلت وجهي..

وجدت في حجرة الصالون العم صالح، بجسده الضئيل، وثيابه الكاكي المألوفة، وطاقيته الشبيكة البيضاء.. إنه يعمل معنا في المكتب نفسه منذ أعوام، وهو يقوم بدور الساعي.. ترك ما بيده من ملفات وأوراق على المقعد، وقام ليعانقني في حرارة. قلت:

"مرحبا أيها العجوز.."

"ألم يكن يصح أن تخبرنا، حتى نطمئن، ونقوم بالواجب يا أستاذ رأفت..؟!"

هنا انتبهت إلى ذلك الكائن ضئيل الحجم، الجالس على مقعد جانبي، وقد وضع على ساقيه علبة من الشوكولاتة..

"كيف حالك يا داليا.. لم يكن من داع لهذا التعب.."

قالت في لوم باسم وهي تنهض لتصافحني..

"أخيرًا لاحظت وجودي..؟!"

"آسف.. المشكلة في ثوبك الجميل، الذي يماثل لونه لون الستائر والمفارش لدينا..!!"

احمرت وجنتاها من الخجل، وبدا أنني أثقلت المزاح!.. لكن أمي أنقذت الموقف، إذ دخلت علينا حاملة أقداح العصير..

"تعالي يا أمي.. إنها المهندسة داليا، وهذا هو الحاج صالح.. زملائي في العمل، وقد أتوا للاطمئنان عليّ.. ليس ثمة غرباء ها هنا.."

قال صالح في لهجة محذرة..

"من حسن الحظ أنني علمت بمرضك بالأمس عن طريق الهاتف، وأخبرت المهندس نصر.. ولولا هذا لكنت بصدد مفاجآت غير سارة في العمل..!"

واستطرد في مرح..

"نحمد الله أن الموضوع أبسط مما ظننت.. لديك راحة لمدة أسبوع آخر، والمكتب بأكمله يرسل لك تحياته، فلا تقلق.."

ثم نهض من مجلسه، وتناول الأوراق..

"هيا بنا يا مدموازيل..!!"

نهضت داليا في استسلام، وأعطتني الشوكولاتة.. ولم تنس أن تلثم وجنتي أمي..

"ألف سلامة للأستاذ رأفت يا ماما.."

"الله يسلمك يا بنتي.. ولكن لن يرحل أحدكما قبل أن نتناول الغداء سويا.."

"حفظك الله يا حاجة.. لكنها دواعي العمل كما تعلمين.."

قالها صالح، فقلت..

"انتظري قليلاً يا داليا، لما العجلة؟"

تسمرت داليا في مكانها دون رد، فقال صالح..

"على راحتك يا بشمهندسة.. لقد اصطحبتك معي لأنك تجهلين الطريق.. لكن بوسعك الرحيل بمفردك إن شئت.."

"لا تقلق يا عم صالح.. يمكنني توصيل داليا بسيارتي إلى حيث تريد.."

قالت داليا في حياء..

"أفضّل أن أرحل الآن، حتى لا يفوتني موعد القطار.. فلدي رحلة إلى كفر الزيات بعد ساعة.. ومن الممكن تأجيل دعوة الغداء إلى يوم آخر، إن كان هذا يناسب الجميع.."

وعند باب الشقة وأنا أودعهم، تذكرت شيئًا هامًا، فقلت مناديًا صالح..

"يا حاج!.. إنك لم تخبرني بعد، من الشخص الذي اتصل بك وأخبرك بمرضي..؟"

توقف صالح على السلم محاولا التذكر..

"لقد اتصل بالأمس، وطلب لك إجازة لأن حالتك - كما قال - كانت خطرة بعد ذلك الحادث.."

"أي حادث؟!"

"حادث السيارة طبعًا!"

"سيارة؟!.. المهم!.. أكمل من فضلك.."

"هذا كل شيء.."

"ألم يقل من هو؟!"

ابتسم صالح، كأنه استمع لمزحة لم يفهمها..

"قال!.. لكنني تصورت أنه يمزح في البداية، إلا إنه أكد لي أنه يعني ما يقول.. اسمه (سلفادور دالي)..!!"

كلنا اعترض، وكلنا أبدى استياءه حيال هذا الاختيار.. لكنه أصر على إتمام الأمر.. لم يكن اعتراضنا لشيء إلا لأجل مصلحته.. فنحن كنا على معرفة كافية بـــ "نيرمين".. و نعرف أنها شخصية متقلبة.. مجنونة بمعنى أدق..!

إنها جميلة، مهذبة، لطيفة.. لكنها (لاسعة حبّتين).. مزاجية لأقصى حد..

كانت زميلة لــ "رأفت" في مكتب المهندس نصر.. وكنت أعرفها وتعرفني جيدًا.. تحدثت معها مرارًا، ولم تعجبني دماغها!.. يبدو أن دراستها للفن قد أثرت على شخصيتها، فصارت ذات ذوق عجيب.. قد تطرح رأيًا ما، وبعد دقائق تجدها وقد استنكرت نفس الرأي!.. تقول أي شيء، ثم تنسى أو تنكر أنها فعلت.. وقد تسألني: (لقد كنت أريد منك "كذا".. ترى هل طلبته منك أم لا..؟!!).. وكثيرًا ما تجدها تقول: (من رأيي أنه كذا وكذا.....) فأخجل من مصارحتها بأن هذه هي المرة الألف التي تطرح فيها ذات الرأي، خلال نصف ساعة فقط!

فأحيانًا كنا نشفق على عقلها، وأحيانًا أخرى كنا نسخَر منها.. وفى أغلب الأحيان كنا نخشاها!

لذا، اندهشت أمي كثيرًا.. ورفضت أنا في البداية أن أذهب مع رأفت إلى مترل الدكتورة سُها، كي نطلب منها يد نيرمين..!

كلنا اعترض، وكلنا أبدى استياءه حيال هذا الاختيار.. لكنه أصر على إتمام الأمر.. فلم نجد بدًا من الامتثال لرغبته.. وقد تم..!

***

بدا وكأن حالة نيرمين النفسية قد استقرت إلى حد كبير، بعد إتمام خطبتها على أخي رأفت.. وكانت الابتسامة لا تفارق وجهها.. كانت مثالاً حيًا لمعنى كلمة (السعادة).. وكذلك كان رأفت وأكثر..

ذات يوم، أخذني رأفت إلى مرسم نيرمين، لأنه يريد أن يريني شيئًا ما.. وأنا لا أمقت في حياتي شيئًا بقدر الرسم.. إنه ذلك الشيء الذي ينفقون في سبيله الكثير من المال، ويبذلون الكثير من الجهد، ويلطخون وجوههم وثيابهم كالمهرجين، لكي يخرجوا في النهاية بعمل يحاول جاهدًا أن يحاكي الطبيعة؛ في حين أنه يمكنهم التأمل في الطبيعة ذاتها كما يرغبون. وحتى وإن احتاجوا لتسجيل لحظة معينة - وأنا من رأيي أنه ليس بالحياة ما يستحق التسجيل، بل إن النسيان هو الحل الأصوب! -

فهناك التصوير الفوتوغرافي.. إنه أسهل، أوفر، أدق، وأفضل على كافة المستويات.. أليس كذلك؟!

إلا أنني سمعت - خيرا اللهم أجعله خيرا..! - أنه هناك بعض المخابيل، ممن يميلون لرسم الشخص بأربعة أعين، وستة أنوف، وبلا فم على الإطلاق.. ويطلقون على هذا اسم " سرياليزم "..

هل رأيت من قبل شيئا مثل هذا؟.. تهريج ليس له حد!.. إنه يرسم لك سمكة مشوية تصارع قلم حبر، ثم يقسم بأغلظ الأيمان أنها لوحة للملك هنري الثامن!.. على اعتبار أن هنري متوفٍ منذ زمن، فلن يعاقبه على فعلته.. فضلاً عن أن الناس قد نسوا كيف كان شكله الحقيقي!

كلام فارغ يا إكسلانس!

لذا تراني أذهب معه وأنا في قمة الملل.. فقط لأنه قد وعد بأن يعطيني رقم هاتف داليا..!

وداليا هذه زميلة لهما بالمكتب، كنت قد رأيتها ذات يوم، وقررت أنها فتاة أحلامي، لكنني لم أتمكن من استخلاص رقم هاتفها من رأفت بسهولة. إنها مهندسة جميلة ورقيقة، وصغيرة الحجم كالدمية.. باختصار، إنها الطراز الذي أفضله!

سوف أتصل بها، نتكلم قليلا.. فيم؟!.. أي كلام.. مجرد ثرثرة عادية، بلا معنى ولا هدف كالعادة.. وكالعادة سينتهي الأمر بنا ونحن حبيبان، أو على الأقل نشبه الأحبة إلى حد كبير..

هذه هي القاعدة.. فلا تحاول كسرها من فضلك.. لأنك - مهما قلت أو فعلت - ستظل القواعد الثابتة ثابتة..!

المهم أنني قد دلفت إلى تلك الورشة، التي تطلق عليها نيرمين اسم الأتيليه.. وكنت أحاذر كي لا تطأ قدمي علبة ألوان.. أو أن تسقط زجاجة النفط أو الجاز فوق رأسي، فتتلف الـ (تي ـــ شيرت) الجديد.. حتى وجدت راهبة الفن جالسة فوق مقعد عال، أمام stand رأسي، معلق عليه لوحة مغطاة بالخيش..

- "كيف حالك يا ميمي..؟!"

- "كيف حالك يا زيزو.. هل تعرف أنك الوحيد هنا الذي يهتم بتدليلي؟!"

قال رأفت - الخائب - ضاحكًا..

"يا لك من ظالمة!.. هل هناك شخص آخر يناديك بلقب فراو...!"

طرقت على شفتيها تقاطعه في خجل..

"لا تقل!"

"ثم إن اسمك في حد ذاته يصلح اسم تدليل!.. هل يمكنك إخباري بمعنى نيرمين..؟!"

لم تنجح في تصنع الغضب، وقالت باسمة..

- "بالطبع يمكنني.. لكنني لن أفعل..!"

ثم تحولت إليّ وقالت..

"لم تتأخر.. ظننتك لن تأتى أصلاً!"

- "أخبرني رأفت أنك قمت بإنتاج عمل فني رائع، فلم أستطع المقاومة!"

- "يا رجل..!"

- "لا تصدقيه، إنه لم يستطع مقاومة شيء آخر.. هل تعرفين ما هو؟!!"

قلت أنا..

"عيب يا رأفت!.. هل تعنى أن لوحة نيرمين سيئة، ولا تستحق أن أعاني مشقة الحضور من أجل رؤيتها؟!"

ضحكت نيرمين إزاء نظرة رأفت المتوعدة، مما أضحكني أنا نفسي، قالت نيرمين في خبث..

"على كل حال سأعرف عاجلاً أو آجلاً.. المهم الآن: ما رأيك في هذا؟!"

ونهضت من مجلسها، ثم – بحركة مسرحية – أزاحت الستار عن اللوحة.. في البداية لم أصدق ما وقعت عليه عيناي.. لقد شرحت من قبل مدى كراهيتي للرسم، لذا يمكنك توقع مدى روعتها من خلال ما أصابني لدى رؤية اللوحة..

في البداية رغمًا عني أطلقت صفيرًا، يعبر عن إعجابي بالمشهد..

كانت اللوحة بورتريه نصفي لأخي رأفت، استخدمت فيه نيرمين كل درجات الأزرق الممكنة، بشكل يوحى للمشاهد أنه يرى رأفت نفسه، من خلال عدسات زرقاء اللون..!

كانت اللوحة على درجة فائقة الجمال والروعة، تحفة حقيقية، لم أصدق إمكانية صنع مثلها، حتى وهى ماثلة أمام ناظري..

ومما زاد من روعتها، توزيع نيرمين للإضاءة، بشكل ينم عن خبرة عالية وحس مرهف، مع الأسف الشديد افتقدته في كل من حولي، بما فيهم أنا شخصيًا!

لقد حرصَت على التفاصيل أكثر من حرصها على مضمون المشهد الكلي، حتى أنني شعرت بأنه يمكنني لمس هذا الشعر المجعد الكحلي، والشعور بتدريجاته!.. شكل الأذن بظلالها وتعاريجها.. وشكل التجاعيد حول العينين..

وكله – بصراحة – إلا العينان!.. هذه العين حقيقية إلى حد كبير.. إلى حد مرعب!

كانت اللوحة تبدو وكأنها تشع ضوءً في حد ذاتها.. كانت شيئًا مذهلاً..

"مستحيل!.. هل تحاولين إقناعي بأنك قمت بصنع هذه اللوحة فعلاً..؟!"

"لا!.. إنني فقط أسألك عن رأيك فيها.."

"في الحقيقة لا أجد كلمات مناسبة تعبر عن مدى إعجابي بها.. هل استخدمت في صنعها ألوان الزيت أم الأكريليك..؟!"

قالت مندهشة:

"وهل تعرف الفارق بين النوعين؟!"

قلت باسمًا وبلا خجل..

"لا طبعًا!.. لكنني أسمعهم يتفلسفون أحيانًا..!"

"توقعت ذلك على كل حال.. فلو كانت لديك أقل خلفية عن الخامات لـــــما سألت مثل هذا الســـــؤال الهمجي!.. على كل حال إنها ألوان الزيت يا (أبو الكباتن)!"

"إن أردت الحق، فأنا كنت أكره الرسم كراهية مطلقة، حتى رأيت هذه اللوحة.. إنك حقا فنانة ملهمة، وأنا بسببك صرت أحب هذا الفن.. بل وبسببك أيضًا صرت أحب ملامح هذا الفتى.. منوّر يا رأفت..!"

"إذًا بما أنك عدت لصوابك أخيرًا، يمكنني مكافأتك بأن أصنع لك واحدة مثلها.."

"في هذه الحالة سأحبك أنت أيضا!"

قالت نيرمين في حياء مصطنع..

"ولكني مرتبطة..!"

"ليست مشكلة على الإطلاق!!"

ووضعت يدي على كتف رأفت، ونظرت إليه، مما جعل نيرمين توشك على فقدان الوعي من الضحك وهي تشاهدنا..

" رأفت.. أخي وحبيبي..!"

"كف عن المزاح يا رامز، وإلا قتلتك!"

قلت بلهجة عملية..

"Ok.. أعطني الرقم إذًا، لأنني قد تأخرت.."

قالت بفضول:

" رقم من يا رأفت.. رقم من؟!"

"إنه يريد رقم "هاتف........"

قاطعته بسرعة..

" رأفت.. توقف وإلا قتلتك أنا، دع الأمور تسير على مهل من فضلك.."

"عذرًا، لكنني لا أرى أي شيء يسير بالمرة.. المياه كلها راكدة من حولك أيها المسكين!"

"سوف ترى يا إكسلانس.. فقط اترك هذا.."

وانتزعت منه هاتفه، حتى أستخرج الرقم..

"... ودَع الباقي على الله!"

وبعد أن نقلت الرقم إلى هاتفي.. حييتهما وباركت لـــ"نيرمين"، ثم غادرت المرَسم على عجل، وأنا أدعو الله في سري أن ينهار سقف المكان على رأسيهما، ليموتا معًا ويحققان حلمهما.. وتنتهي كل مشاكلي!

اتصلت بـــ "داليا"، واستطعت أن أقتنص منها موعدًا.. كان هذا متوقعًا على كل حال..

إذًا.. هل تعرف أين أنا الآن؟!.. إنني جالس في مواجهتها، على نفس المائدة، في ذلك المطعم بوسط البلد.. بصراحة شديدة، أكره هذا الأسلوب الكلاسيكي، لكنها للأسف تميل إليه بشدة.. كانت (بنوتة) حالمة بريئة، تكاد تنبت لها ضفيرتان.. تبًا لكل هذا!

أعتقد بلا شك أنها كانت تبكي أمام أفلام فاتن حمامة وعماد حمدي!.. حسنًا، أعترف أنها خيبت آمالي.. لست مستعدًا لتحمل كل هذا الكم من الهمسات والدموع والتنهدات.. لذا فقد استوجب الأمر أن أحاول إنهاء هذه العلاقة سريعًا، وهو ما لم يتطلب جهدا كبيرًا..

يبدو أنها هي الأخرى كانت تستعجب طريقتي في معاملتها.. وتندهش من وجهة نظري في الحياة ككل.. لكن القصة انتهت بنا ونحن أصدقاء.. وهو ما أراحني كثيرًا لسببين:

أولهما إنني أرى الموضوع جديدًا بحق.. فقد اعتدت أن أقطع كل علاقاتي بشكل سيئ.. خلافات ومشاكل ودموع، وأشياء من هذا القبيل.. وهو ما قررت أن أغيره يوما ما، وقد كان!.. السبب الثاني إنني بالفعل لم يكن لدي أصحاب!

هنا فقط يمكنني القول إنني – للمرة الأولى – استطعت رؤية داليا بشكل صحيح..

لقد كانت إنسانة في منتهى الجمال.. أعني على المستوى الإنساني، فضلًا عن الشكلي.. كانت طيبة القلب لأقصى حد، ولديها القدرة على العطاء والغفران بصورة مدهشة.. وأجمل ما فيها أن لديها موهبة من نوع خاص.. كان بوسعها التماس الأعذار لكل من ظلم أو أخطأ.. حتى – وبالأخص – إن كان هذا في حقها..

كانت لطيفة ورقيقة في تعاملها مع الكبير والصغير، حتى إنني تمنيت لو كنت أمتلك شخصية تستطيع التوافق معها.. فقد كانت تعامل الجميع بحنان مطلق، وكأن كل ابن آدم هو ابن لها!

وبالحق أشهد أنني – لأول مرة في حياتي – كنت على هذه الدرجة من الإخلاص في علاقة ما.. وكان هدفي الأول هو الإبقاء على صداقة هذا الكنز لأطول فترة ممكنة.. وأعتقد أنني نجحت..

***

ذات يوم، تقابلنا أمام دار الأوبرا..كانت هناك لحضور عرض مسرحي جديد، واتصلت بي، فمررت عليها هناك، بعد

انتهاء العرض، لنخرج سويًا.. لكنني وجدتها مختلفة عما اعتدت.. كانت ساهمة النظرات، شاردة الفكر، صامتة كالصخرة.. وبدت وكأنها على وشك البكاء..

"ماذا بك يا عزيزتي؟.. هل تعانين من مشكلة ما..؟!"

"اطمئن.. أنا بخير.."

"لا، لست كذلك.. داليا..؟!"

"لا شيء.. أقسم.."

"لا تقسمي.. أنا لا أريد إزعاجك يا ماما، لقد كنت فقط أريد الاطمئنان عليك.. آسف.."

كانت سياسة التجاهل هذه نادرًا ما تخذلني.. وبالفعل، رمتني بنظرة مفعمة بالتوسل والدموع.. وفجأة انفجرت في بكاء حار!

"أنا.. أنا لست.. أقسم أنني كنت أعتبرها أعز صديقاتي.. لا أعرف لماذا.. فعلت!!"

لم أحاول أن أستخلص أي معلومة.. كانت منهارة تمامًا، وكنا في هذه الأثناء نمر فوق كوبري قصر النيل، فتوقفنا قليلًا، نتأمل المياه تحت أضواء المصابيح.. والبشر من حولنا يتحركون رواحًا وغدوًا، كل إلى مسعاه..

تناولت من عربة صغيرة تقف بجوارنا، كوبين من الحُمّص الساخن.. ووضعت واحدًا في كفها المرتجف، ثم طفقت أنتظرها في صبر، حتى تستعد للكلام..

"أنت لن تتفوه بحرف واحد.. أليس كذلك؟"

"تكلمي يا داليا ولا تخافي، أنت تعلمين جيدًا أنك في مكانة سوسن ابنتي..!"

نجحت أخيرًا في رسم بسمة صغيرة فوق شفتيها، مما طمأنها قليلاً، وبدأت في التحدث.. أراحني ذلك كثيرا، وبدأت في الإنصات..

***

"أنت لم تكن تعلم أنني أحب رأفت.. أليس كذلك!!"

في البداية صدمتني العبارة للحظات، قبل أن أرد..

"أبدًا.. لم يخبرني رأفت بهذا من قبل.."

قالت بلهجة هادئة..

"طبيعي.. فهو نفسه لم يكن يعلم أصلاً."

رمقتها بدهشة، فقالت..

"لهذا قصة.."

ظلت داليا تتحدث لفترة طويلة، حتى أن الحمّص قد تسللت إليه برودة الجو بين أصابعنا، فتركناه كما هو دون أن نمسّه..

فهمت منها أنها في بداية انضمامها لمكتب المهندس نصر، قد انجذبت لـــ"رأفت" كثيرًا.. وكانت نيرمين هي الوحيدة التي تعلم بهذا الأمر.. واستمرت داليا على هذا الحال لفترة طويلة، دون أن تحاول إخبار رأفت، لا من قريب ولا حتى من بعيد.. خاصة وهى تراه يعاملها بأسلوب غريب، يجمع بين السخرية والجفاف بلا مبرر منطقي..

وذات يوم، أخبرتها نيرمين أن رأفت قد طلبها للزواج.. فلم تندهش داليا، بل كتمت حزنها كالعادة، وسألتها..

"وبم أجبت طلبه!"

"رفضت طبعاً.. لكنني لم أجرؤ على إخباره بحبك له.. كان ينبغي أن يشعر هو بذلك.."

لكن داليا فوجئت – بعد أسبوع واحد – بخبر تحديد موعد الخطبة!..

مرت الصدمة سريعًا، وإن لم تستطع داليا أن تنسى بنفس السرعة.. حافظت على علاقتها بـــ نيرمين كصديقة لها.. وهو الأمر الذي لم أفهمه مطلقًا..

"عادى!.. ربما كانت تحبه هي الأخرى، وخشيت من مصارحتي بذلك!.. وربما اعتبرت أن اختيار رأفت لها هو سبب أحقيتها به.."

- "لكنها خدعتك يا داليا.. ليس هذا مزاحًا.. لسنا في برنامج الكاميرا الخفية هنا..!"

- "أعلم.. ولكن من المؤكد أنها لم تجد الطريقة المثلى لإخباري بالحقيقة.. ربما كنت أنا غبية أكثر من اللازم.. لا يمكن إنكار أن الموقف كان صعبًا بحق..!"

قلت مفكرًا..

"كان هذا منذ عام تقريبًا.. أ ليس كذلك؟"

"خمسة عشر شهرًا وستة أيام..! "

"أي أن هذا حدث من قبل أن نتعارف.."

"نعم.. ببضعة أشهر.."

" ولماذا لم تخبريني بهذه القصة من قبل..؟!"

" لأن القصة لم تعد تمثل لدي أهمية ما، لكن المشكلة أن هذا لم يكن كل شيء..!"

***

قالت...

"واليوم فقط تلقيت الصدمة الثانية.. لقد علمت أن رأفت كان معجبًا بي منذ التحقت بالمكتب، وكان يرغب في التحدث إليّ؛ لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة ليفعلها، فطلب من زميلته نيرمين – وكان هذا في بداية التحاقي بالمكتب، أي أنه حدث قبل أن يفاتحها في أمر الخطبة بفترة طويلة – أن تقوم بهذا الدور من أجله.. وبرغم ذلك، وبرغم علم نيرمين أنني كنت أحبه.. إلا أنها أبلغت رأفت – من تلقاء نفسها، ودون علمي – أنها فاتحتني في الأمر وأنا أجبتها بالرفض، لأنه – بحسب ما قالت – (من رأفت هذا الذي يظن أنه وأنه..) وما إلى ذلك..!"

التفت إليها مذهولًا..

"مستحيل!.. نيرمين فعلت ذلك ..؟! "

"تخيل!!"

"وأنت طبعًا لم يصدر منك هذا الكلام..؟!"

"ولا حتى عرفت بهذا الموضوع، إلا منذ ساعات قليلة..!"

استندت بظهري إلى حافة الكوبري، حتى أتمكن من استيعاب ما سمعت..

"وكيف عرفت بالحقيقة بعد كل تلك الفترة؟"

"لن تصدق لو أخبرتك.. من رأفت ذاته..!"

قالت...

"كنت أتحدث اليوم مع رأفت عن أخبار الخطوبة والزواج، وتطرق الحديث إلى مواضيع من نوعية: من أحب من.. ومن تركت من.. وهكذا.. عادى!.. وبصورة عابرة، أخبرني رأفت بأنه منذ فترة حدث كذا وكذا.. وكيف أن رد فعلي أغضبه، وأنه كان يمكنني الرفض بلباقة، دون اللجوء للسخرية والتجريح!!.. وكيف أن هذا كان سبب تعامله معي على هذا النحو.. وإن كان هذا قبل أن يعرفني جيدًا، فيدرك أنني لست على هذا السوء الذي كان يتصوره، ونصير صديقين.. ثم يتقدم هو لخطبة نيرمين، التي وافقت على الفور..!

تخيل مدى الصدمة التي تلقيتها.. لم يكن حزني على قصتي مع رأفت، فقد نسيت كل شيء منذ زمن بعيد.."

قلت وأنا أتأملها بعمق..

"أفهمك تمامًا..كانت الصدمة في المخلوقة التي تصورت أنها تستحق صداقتك وثقتك، ثم فعلت بك ما فعلت، دون ذنب منك في حقها..."

"بالضبط، وهذا ما جعلني لا أستطيع تمالك نفسي من الانفجار في البكاء، والانصراف من أمام وجه رأفت دون أن يفهم ما حدث.."

استنشقت نفسًا عميقًا وأكملت..

"بعد ذلك شعرت بالرغبة في التواجد هنا، وتمنيت وجود صديق معي.. صديق حقيقي.. لو لم تأت إليّ لتصورت أن الدنيا قد انتهت من حولي...!"

تأملتها في شفقة، وقلت..

"هل تقولين إنك لم تحاولي تبرئة نفسك أمام رأفت؟!"

"صدقني، لم أعد مهتمة بهذا، ولن أجني شيئًا من وراء مشكلات قد تنشأ بينهما بسببي.."

"هل أنت بالفعل غبية إلى هذا الحد؟!"

"افهمني يا رامز.. من ناحية رأفت، أنا متأكدة تمامًا أنه نسي هذه القصة منذ زمن.. وعلاقتي به في المكتب على خير ما يرام.. أما بالنسبة لـــ نيرمين..."

وسكتت لحظة، ثم رنت إلى في نظرة تجمع بين الخوف والتوسل..

"رامز.. إنني خائفة للغاية..!"

وضعت يدي فوق كتفها، وقلت بهدوء..

"صغيرتي، لا أرى في الأمر ما يستوجب خوفك من نيرمين.."

قاطعتني وهى ترتجف..

"ليس من نيرمين، بل من نفسي!.. إنني أشعر كما لو أنني قد تغيرت.. هل تصدق أن صاحبتك داليا، التي تعرفها جيدًا تشعر بالرغبة في الانتقام..؟!"

سمير

منذ اللحظة الأولى، أدركت أن المشكلة التي وقع بها رأفت لن تنتهي بسهولة. إن هذا الجرح لا يمكن تسميته - بأي حال - بالجرح البسيط. لا يتطلب الأمر أن تكون طبيبًا لتفهم ما أعني.. هل رأيت من قبل جرحًا عاديًا، يأبى أن يندمل أو يترَف قطرة واحدة من الدم؟! بل إنه رفض الخياطة الجراحية، وطرَد الغرز بشكل لم يسبق له مثيل..!

"أنت مسحور يا أخي.. ملعون إن شئت الدقة!"

قلتها في سرّى.. فلم يجرؤ لساني على نطقها صراحة في وجهه.. إن لي خبرة أخرى غير الطب، لا يعرفها الكثيرون عني.. كم سهرت الليالي أقرأ و أدون و أحلل - دون نية التجريب - في كتب جدي وأبي القديمة، التي وجدتها بعد أن توفيا، وعرفت أنها كتب سحر وأساليب تـــسخير..

من الممتع دائمًا أن تعرف.. و الأمتع أن تجد حالة عملية تثبت ما عرفت، ولكن...

رأفت...؟!

سألت نفسي عن أهمية صديقي رأفت عبد الفتاح في الحياة، حتى تتم معاملته بهذه الطريقة التي تخلو من الذوق!.. لكنني

كنت أعرف أن السحر الأسود حق مكفول للجميع.. والحقد يفعل هذا وأكثر!

لذا، ترى معي أن المشهد التالي كان متوقعًا إلى حد بعيد...

***

الزمان: السادسة من صباح أحد أيام الخميس.. تقريبًا بعد مرور أسبوعين على الحادث..

المكان: دورة المياه الملحقة بحجرة رأفت، في مترل الحاج والده رحمه الله..

الحدث: يدخل رأفت، وقد علق منشفته على كتفه، بينما عيناه لا تزالان مغلقتين من أثر النعاس..

"أسوأ شيء في الوجود، أن تكون على يقين من موعد حلاقة ذقنك.. (أففف)!"

كانت المشكلة الجديدة، هي اضطراره لحلاقة ذقنه، فيكون بذلك معرضًا لجرح وجهه، الذي لا يعلم كيف فارقه ألمه..

"سنحاذر كي لا.. آي!"

كان ينتوي أن يحاذر، كي لا تقترب شفرة الحلاقة من ذلك الجرح بطول خده الأيسر.. وكان هذا حين فوجئ بصوان أذنه اليمنى، يسقط أمامه في حوض الغسيل!!

بدا الأمر وكأن هناك من حزّها بخنجر حامي النصل.. لكن أحدًا لم يكن هناك بالحمام!

"خنجر، أم شفرة حلاقة؟!"

"بل خنجر يا سمير، وأرجو أن تكف عن استنتاجاتك العبقرية..! هل أخبرك أحدهم أنني قد سبق لي أن أمنّت على أذني، وأرغب في استرداد قيمة التأمين؟!"

"لا، في الحقيقة لم أعرف إلا منك أنت الآن!"

"إذًا – أيها الغبي! – ما الذي يدعو شخصًا عاقلاً لأن يقطع أذنه في رأيك..؟!"

"أن يكون هذا الشخص هو رأفت عبد الفتاح...!"

و يبدو أنني ضايقته كثيرًا، فقال في نفاد صبر..

"حسنا.. سأتناسى مؤقتًا أنك طبيب، ولسوف أعتبرك إسكافيًا..!"

وأخرج من جيبه علبة صغيرة..

"ها هي أذني، أرجو أن تعيدها لمكانها من فضلك!"

"أرني موضع الجرح أولًا.."

"لماذا؟.. هل تشك في أنه سيتصرف مثل الجرح السابق؟"

"هل عندك أدنى شك في غير ذلك؟!"

للمرة الأولى بدا عليه الرعب، وقال..

"والحل..!"

"أرى أن نجرب لصقها بأنبوب (أمير).. ما رأيك؟!"

صرخ في انفعال..

" أنا لا أمزح أيها الوغد!"

ثم ارتجف صوته..

"انقذني يا سمير.. إنني أتحلل حيًا!"

***

كانت هذه هي مشكلة رأفت معي، أما عن مشكلتي أنا معه، فلتلك حكاية أخرى..

***

أعترف أن أول تعارف بيني ورأفت، كان يوم خطبته لـــ "نيرمين"..

وبرغم إن هذا قد ضيع كل مجهودي، وحطمني تقريبًا، وأضاع أملي.. إلا أنني لم أتمكن من أن أكرهه للحظة.. فبرغم كل شيء لم يكن الذنب ذنبه على كل حال..

كنت أعتقد منذ البداية أني أستحق نيرمين.. لا أدرى من أين أتاني هذا اليقين!.. ربما لأنني أردت ذلك، أو ربما لمجرد أنني ابن عمها، وأنني أولى بها من الغريب.. لست أدرى حقيقةً..

لأول مرة أقرّ و أعترف.. و اعتراف كهذا لم يكن ينبغي أن يصدر عن طبيب نفسي، مرموق إلى حد ما.. لكنه الشعور بالحاجة للتطهّر.. خاصة لو كان في حضرة شخص لا يملك فرصة التدخل في مسار الأحداث، ولن يملك.. أعترف بأنني لم أجتهد لأصبح ناجحًا، إلا لكي أشعر في داخلي، بأنني بالفعل أستحقها.. تلك الفتاة التي انفصلت عن عالمي بمجرد وفاة أبيها، و لم تتذكرني إلا يوم خطبتها.. وكأنها تطالبني بمشاركتها الاحتفال!

والحقيقة هي إنني لم أنسها يومًا واحدًا منذ ذلك الحين.. كنت على اتصال دائم بوالدتها د. سها، دون علم نيرمين.. والسبب أنني كنت أخشى أن تفهم أنني لازلت أعشقها، بعد ما كان منها.. فقد كنا مخطوبين، عندما كان المهندس منصور أبو الحسن – عمي – لم يزل حيًا..

هل كانت تحبني؟!

هذا هو أغبى سؤال من الممكن أن توجهه لعاشق!.. إنني أحبها.. وهى معي الآن، وتبتسم!.. تشاركني الطعام..

وترافقني لدخول السينما، بل وتفخر بكوني طبيبًا.. فهل تسألني بعد ذلك إن كانت تحبني أم لا؟!!

المهم أن عمي قد توفى فجأة، ومن بعدها لم تعد تتصل بي، أو تقابلني، أو ترد على مكالماتي المتكررة.. كأنها كانت ترضيني جبرانًا لخاطر والدها!!

ويوم علمت بنبأ خطبتها، بكيت كثيرًا كالأطفال، وظللت أكلم نفسي طيلة الليل، ولم أجد من ينقذني من وحدتي القاتلة سوى صديقتي ثريا، ورفاقها الظرفاء!.. ويومها فقط علمت أن المسافة ما بين طبيب نفسي ومريض نفسي هي ذات المسافة ما بين مقعد مكتبي، وهذا الشيزلونج الجلدي الأبيض في نهاية الحجرة..

حزنت لأجلي د. سها كثيرًا، فقد كانت تعلم.. ربما أكثر من نيرمين ذاتها، التي اتضح لي أنها فاقدة للشعور فقدانًا تامًا..! لم تناقش الدكتورة مطلبي، عندما طالبتها ألا تخبر ابنتها بسؤالي عنها وعن أحوالها.. إنها حقًا سيدة رائعة، على المستويين الإنساني والعلمي.. ليتها كانت أمي أنا!

على أن علاقتي بـــ "رأفت" قد بدأت تتوطد منذ ذلك الحين، ولا أنكر أن هذا كان بمسعى من جهتي أنا.. وأرجو

المعذرة إن خجلت من الاعتراف بالسبب الرئيس لذلك، وهو أن أشهد يوم يفترقان كما شهدت يوم ارتبطا!!

كانت ثقتي في ذلك تعود لـــ "نيرمين" وحدها.. إن شخصية مثلها - وليس على وجه الأرض مثلها - لا يمكن أن تستمر على حال أبدًا.. حتى وإن كان هذا الحال، هو منتهى الرخاء والسعادة.. وهو الشيء الوحيد الذي يمكنك الثقة بـــ "نيرمين" حياله على أي حال!

كان هذا - كما أسلفت الذكر - هو سبب تعلقي بصداقة رأفت، في بداية الأمر. ولكن الأمر اختلف بعد ذلك، وصرنا صديقين حقًا. وقد بدأت تلك المرحلة، على وجه التحديد يوم تركته نيرمين، كما توقعت تمامًا..

كان يحبها حقًا، لذلك فقد كانت دهشتي عظيمة نحو رد فعله تجاه الموقف.. توقعت أنه سوف يثور ويجن، أو يصاب باكتئاب حاد، وينعزل على الأقل لمدة شهر . هذا يعني أنه رجل شديد الصلابة.. وجدته يقابل الحياة بلا مبالاة عجيبة دون تعليق، وكأن شيئًا لم يكن.. وقد تأكدت من نسيانه للأمر على الفور..

لاحظ أن تخصصي يسمح لي بالتمييز بشكل جيد، بين من ينسى، أو يدعي، أو يحقد، أو يحزن..

وعلى غرابة الأمر، إلا إنه كان ذو فضل عظيم في توطيد علاقتي به.. إنه لم يعد يحبها!

بالإضافة لاكتشافي ذلك الجانب من شخصيته: إنه شخص من الطراز القادر على المكوث وحده في زنزانة مغلقة، دون أن يحتاج لرؤية مخلوق، مادامت سبل إحيائه متوافرة.. فلم يؤثر عليه فراقها على النحو الطبيعي المتوقع.. فإن كان هذا غريبًا ويستحق الدراسة على المستوى النفسي، فهو مكسب علمي لا شك فيه.. وإن كان هذا طبيعيًا، فهو رجل قوى جدير بصحابته..!

***

"انقذني يا سمير.. إنني أتحلل حيًا!"

ظلت عبارته ترن بمسامعي لأيام طوال.. وقد قررت أن أجد له حلاً، مهما كلفني الأمر من مشقة.. أشعر بأنها مسؤوليتي..

كان لديّ كتاب قديم، مختص بتلك الأمور.. وكان منقسمًا إلى قسمين: الأول مختص باللعنات غير التقليدية من هذا الطراز.. وكيفية توجيهها والتحكم بها.. والثاني يختص بطرق الشفاء والوقاية منها. كان هذا هو الكتاب الذي أحتاج إليه بالضبط؛ لكنه كتاب خطر للغاية.. لقد وجدته بحال جيدة،

برغم قدمه الواضح، بداخل غلاف قماشي مخيط شبه مهترئ، ومكتوب عليه بالعربية والإنجليزية بخط رديء:

(لا تقرأ هذا الكتاب!)

ومن منظر غلافه، تأكدت أن أيٍ من أبي وجدي لم يحاولا فتحه من قبل، ولم يقرأه.. وكأن الاحتفاظ به غاية في حد ذاته.. أو ربما كانت الغاية، هي الاحتفاظ بخطورة الكتاب، وكبحها بين جدران هذا الغلاف..

ومنذ عدة سنوات، كنت أنا أول من فتح الكتاب، ربما منذ مئات الأعوام.. وربما على الإطلاق!

كان هذا بدافع الفضول لا أكثر.. وقد سألت زميلاً قديرًا في هذا المجال عن الكتاب – الذي نسيت عنوانه للأسف – دون أن أخبره بأن لديّ نسخة منه.. وكان ما قاله مخيفًا..!

قال إن الكتاب ملعون.. من يقرأه يقع تحت سيطرته، وقد ينفذ أوامره دون أن يذكر أنه فعل أو أنه قد طالع الكتاب من الأصل.. لذا لم أحاول قراءته، أو التقليب فيه من قبل.. كنت أخشى دخول التجربة، ولو بدافع من فضول..

لكنني سأفعلها اليوم.. من أجله..

قيل إن الكتاب يحوي من أسرار السحر الأسود ما لا يتصوره عقل، وقيل إنه قادر على صنع معجزات..

وتتمثل قوة الكتاب - أو أكثرها - في أنه يتجاهل العقل الواعي تمامًا، ويوجه كل قوته إلى العقل الباطن لمن يطالعه.. ما الذي تخفيه عن الناس، وما الذي تخفيه عن ذاتك..؟!

ثم يهديك أعظم وأخطر ما لديه.. وهكذا يتأثر به - أول من يتأثر - مستخدمه!

وهناك أقوال تؤكد أن واضع الكتاب هو الشيطان ذاته.. وأنه يسكن بين صفحاته، في انتظار أن يقرأه أحدهم!

لسبب ما، لم أتمكن من تصديق هذا الافتراض، ورأيت فيه مبالغة كبيرة.. لكنه إن دل على شيء، فعلى قوة الكتاب،التي لم يحاول إنكارها أحد..

وبرغم كل ما سمعت عنه، لا أدري كيف قاومت فضولي طيلة تلك السنوات لمطالعته.. لكنني اليوم لن أفعلها بدافع الفضول فقط!

تلقيت مفاجأة قاسية، حين لم أجد الكتاب لديّ في مكانه بالمكتبة.. يبدو - رغم صعوبة هذه الفرضية - أنني قد أعرته

لشخص ما، لا أذكر حتى من هو.. مستحيل أن أكون قد تخلصت منه.

لا يمكن أن يكون قد فُقِد، فهو لم يخرج من مكتبتي قط.. وأذكر جيدًا أنه كان أمامي منذ أسابيع قليلة.. لابد أن أذكر أين وضعت هذا الشيطان الورقي.. من الذي طلبه مني؟.. أكاد أتذكر، لكنني لا أستطيع!.. إن رأسي يوشك أن ينفجر..

وتقريبًا كنت على هذه الحالة، حين فوجئت بمن يدخل مكتبي بشكل مفاجئ، وهو يعوي كالذئاب!.. كان شكله يشبه البشر إلى حد كبير..

كما لك أن تتوقع.. كان بالأخص يشبه رأفت عبد الفتاح ذاته..!

داليا

إن نيرمين كانت بمثابة أختيَ وأكثر!.. لذا وجب عليّ نصحها، إذا رأيتها وهى تغرق نفسها بنفسها..

لم أسألها لما تركت رأفت خطيبها وزميلنا بالمكتب، فهذا شأنها وحدها على أي حال.. ولكن كان يجب أن أعرف لماذا تركت المكتب نفسه..

في البداية، لم تكن تواظب على مواعيد الحضور.. وكانت كثيرة التغيّب كذلك.. ثم فجأة انقطعت تمامًا بذاتها وبأخبارها..

لست فضولية بطبعي، لكنني قررت أن أقترب أكثر..

***

"هل جننت؟.. ماذا تفعلين؟!"

كانت جالسة في مرسمها الشبيه بمخازن الكرار، وأمامها لوحة جميلة جدًا وبشعة جدًا في نفس الوقت..

كانت لوحة مرسومة بدقة واحترافية عاليين، تمثل شخصًا في أعتى صور التشوه.. شخص يبدو وكأن قنبلة هيدروجينية قد انفجرت في وجهه.. وكان هذا الشخص هو رأفت!

الآن فقط عرفت، كيف للحب إن يتحول إلى كراهية مطلقة.. وكيف يتولّد الجنون!

"كما ترين!!"

قلت غير مصدقة هذا الذي أراه..

"لماذا؟!.. ماذا فعل ليستحق كل ذلك.. نيرمين، إنك شريرة!"

"ليس هذا كل شيء.. انتظري!"

وغمست طرف ريشتها في اللون الأصفر ثم الأزرق فالأبيض.. وصنعت في لحظة واحدة، مزيجًا يطابق لون بشرته في اللوحة.. وبحركة خاطفة طمست عينه اليمنى.. فبدت وكأنها لم تكن من الأصل!

" نيرمين!!"

رفعت إليّ بصرها ببطء كالمغيبة..

"هل تركت عملك ومستقبلك، وكرست كل جهدك وطاقتك ووقتك، لتنمية الكراهية بداخلك؟!.. إنك حقًا مجنونة..! "

وشددتها من ذراعها..

"انهضي معي.. هيا!"

"دعيني .."

صرخت بها في تذمر، وهي تسحب ذراعها بعنف من بين أصابعي..

"لا.. لا يمكن السكوت على هذا الجنون.. لابد وأن أجد حلاً.."

***

".. وقد جئت تبحثين عن هذا الحل عندي.. أليس كذلك؟!"

قالها د. سمير درويش في سخرية..

"ألست طبيبا نفسيا؟!.. ثم إنها ابنة عمك.. لابد أن تتصرف!"

قاطعني صوت رنين هاتفي، فألقيت عليه نظرة، ثم ألقيته في حقيبة يدي متأففة، دون أن أرد..

"هل هو رامز ثانية؟!"

"يا له من شخص لحوح.. نسخة من أخيه رأفت!"

"و ماذا يريد هذه المرة يا ترى..؟ "

"دعك منه الآن واخبرني.."

"اخبريني أنت أولاً.. هل انتهيت من الكتاب الذي أقرضتك إياه؟!"

"تقريبًا.. سيكون عندك خلال أسبوع على الأكثر.."

قال محرجًا..

"أرجو المعذرة.. ولكن هل يمكنك تذكيري أي كتاب كان هو؟!"

رمقته مندهشة، ولم أرد.. ساد الصمت للحظات قبل أن أقول..

"لا بد أن تساعدني.. لقد فقدَت عقلها.."

قال بلهجة قاطعة..

"وأنا لديّ مشاكل أهم من اضطرابات عاطفية، لفتاة مخبولة من الأصل.. لدي أصدقاء حقيقيون في مشاكل حقيقية.. وهذا هو كلامي النهائي!"

***

لكنني كنت مصرة على إنهاء مشكلة نيرمين..

لذا تراني أجلس في تلك الحجرة ناصعة البياض، العامرة بالمقاعد الجلدية.. والمزدانة جدرانها بلوحات نظرية، توضح أجهزة الجسم البشرى.. وتشريح العضلات والأوتار والعظام.. وكل ما يمكنك أن تراه في مكاتب الأطباء..

ومع آخر رشفة من كأس البرتقال في يدي، رأيت الباب يفتح وتظهر على عتبته الدكتورة سها والدة نيرمين، بملابس الجراحة الخضراء..

"كيف حالك يا بنيتي.. عذرًا على التأخير.."

"لا عليك يا طنط.. أخبريني أولًا: كيف تم الأمر؟! "

أشاحت بيدها في عدم اهتمام، وقالت..

"زائدة دودية ملتهبة، هذا كل ما هنالك.. لكنني فضّلت التواجد بنفسي، للإشراف على عمل ذلك الطبيب الجديد.."

ثم جلست إلى مكتبها في إنهاك.. قلت لها..

"أرجو ألا تغضبي من حديثي.. أنت تعلمين تمام العلم أنك في مرتبة ماما رحمها الله.."

نظرت إلي باهتمام، فقلت..

"أعتقد أنه من الأولى أن تتواجدي بجوار نيرمين.. إنها ابنتك الوحيدة، والآن لم يعد لها أحد سواك.. إنها تمر بأزمة نفسية

عنيفة للغاية.. وأعتقد أنها في حاجة إليك أكثر من أي شخص آخر.. ومن أي وقت آخر!"

وضعت نظارتها الطبية، وقالت بصرامة تمتزج بالاستنكار..

"وعملي يا داليا؟!.. هل ترين أن أترك العمل لأولئك الـــ..."

قاطعتها بنعومة..

"ماما يا حبيبتي!.. إن العمل لا ينتهي.. ومريض الزائدة الدودية، الذي يوشك على الوفاة هذا، لديه مئة ألف طبيب يعتنون به.. قد لا يكون أحدهم على نفس مستوى كفاءتك؛ لكنه مستوى يكفي لإنقاذ حياته على الأقل!.. أما المريض الذي يعاني الوحدة - وهو مرض قد يقتل، وقد يؤدي للأسوأ - فعلاجه لا يكون إلا عند شخص معين، لا يمكن استبداله مهما كانت البدائل.. ونيرمين......"

قاطعتني مرة أخرى في صرامة أكبر..

"نيرمين ابنتي، وأنا أدرى منك بحالتها.. وأرجو منك ألا..."

"لحظه واحدة!"

ونهضت متجهة صوب الباب..

"شكرًا على البرتقال.. لتسمحي لي بالمغادرة، قبل أن تطلبيها مني.. عذرًا!"

***

ماذا الذي يحدث؟!.. هل جن الجميع؟!

من جهة د. سمير، فأنا متأكدة من جنونه المطبق.. أليس طبيبًا نفسيًا؟!.. لقد تعرّفته عن طريق رأفت ونيرمين، و قد علم أنني في مشكلة عاطفية ما، ليس من مجال لذكر تفاصيلها الآن..

المهم أنه أعطاني كتابًا قديمًا، وقال إنه قد يفيدني في التخلص من حالتي السيئة..

"(مفاوضات إبليس)؟!.. يا له من عنوان.. هل هو رواية؟!"

"ليس المهم ما هو أو ما عنوانه!.. بل الأهم أنه سيعينك على أن تصنعي من جرح الماضي علاجًا للمستقبل!"

"هل أنت متأكد من أنك لا تتبع جمعية سرية ما لعبادة الشيطان أو ما شابه؟!"

وأخذت منه الكتاب.. متأكدة من أنني قرأته، لكنني لا أذكر حرفًا عنه..

لا أذكر حتى موضوعه أو عنوانه..!!

هذا مدهش؛ لكنه حقيقي.. صدقني، فأنا لا أكذب أبدًا!!

ولقد اندهشت كثيرًا، عندما سألني هو بعدها عن الكتاب.. هل نسيه هو الآخر حقًا؟!.. وهو ما يجعلني أعتقد أنه يمارس لعبة ما..

أعترف أنني - بطبعي - شكاكة لأقصى حد، لا أثق بأي شخص مهما كان بسهولة.. هذا الرجل ليس طبيعيًا.. إنه شرير.. ربما قاتل كذلك!

لا أعني بذلك د. سمير درويش على وجه الخصوص.. ولكني أوضح لك طريقتي الخاصة في الحكم على الناس بشكل عام.. أنت صديقي فلن أتجمّل أمامك!

أما بالنسبة للدكتورة سها.. هل ترى تصرفها تجاه أزمة ابنتها منطقيًا؟!

إنني أسألك الرأي، كي لا تظلمني عندما أتهمها بالتواطؤ!!

في الحقيقة.. لم يعد لدي إلا طريق واحد، طويل وممل ومليء بالحفر؛ لكنني سأسلكه رغم ذلك..

لا تنس أن نيرمين كانت — و لم تزل! — أختي، وأكثر...!

وكان هذا الطريق يدعى رأفت عبد الفتاح..

في البداية كان عليّ أن أفعل ذلك.. كما ترى، إنني مضطرة!

***

"كيف حالك يا دودو!"

"كيف حالك أنت يا زيزو.. منذ زمن لم تحاول الاتصال بي.. ألسنا أصدقاء أيها النذل؟!"

"طبعًا، طبعًا!.. أعرف جيدًا هذه الطريقة.. سلي سجل مكالماتك أولاً يا ماما.. ثم تعالي لتعاتبيني!"

"المهم!.. دعك من كل هذا.. لدى شيء عاجل وهام، هل يمكن أن أراك؟"

***

على تلك المائدة الصغيرة في كافيتريا مركز (الإبداع الفني) بدار الأوبرا جلسنا، رامز وأنا..

"يمكنك رؤية رأفت بالفعل.. ولا أعلم لماذا لم تتصلي به مباشرة؟"

"الموضوع أكبر من ذلك.. إنني أحتاج لتعاونك معي!"

"فيم؟!"

"سنحاول إعادة رأفت لـــ "نيرمين".. ما رأيك؟"

رمقني مذهولًا..

"هل جننت؟!.. بعد كل ما حدث!.. أنت تعلمين إنه قد نسي وجودها تمامًا، ولم يعد يتحدث عنها مطلقًا، ولقد احترمنا كلنا رغبته، ولم نفتح سيرتها أمامه منذ ذلك الحين.."

ثم نظر إليّ بذهول أكبر..

"ثم أين كل ما أخبرتني به عن...!"

قاطعته بسرعة..

"موجود.. والله العظيم موجود، لكن الوضع الآن يختلف.. إنها تحتاج إليه.."

"ما شاء الله!.. ما كل هذا التفاني وإنكار الذات.. أليست هي التي...."

قاطعته بسرعة أكبر..

"بلى هي.. ولكن.."

قاطعني هو هذه المرة..

"لا لكن ولا (مالكنش).. لديك رقم هاتفه، إنه منذ فترة مقيم لدى صديق له في السويس، و لم أره مطلقًا منذ حادث أذنه هذا.."

"أذنه؟!.. أي أذن؟"

"لا عليك.. فلتكلمينه إن أردت أنت.. هل أنت على استعداد للسفر إليه في السويس لو تطلب الأمر؟"

"لو تطلب الأمر سأسافر إلى المريخ.. المهم: دعنا نرى ما يمكن فعله.."

وأخرجت هاتفي.. لم أكن أرغب في فعلها، لكنني كما ترى مضطرة!

"ألو!"

"أليس هذا هو هاتف أستاذ رأفت عبد الفتاح..؟"

"بلى، لكنه متعب للغاية.. أنا شريف صديقه.."

"من فضلك يا أستاذ شريف دعني أكلمه.. قل له داليا.. إن الموضوع هام وعاجل، وتتوقف عليه حياة فتاة لا ذنب لها فيما يحدث.."

تجاهلت نظرات " رامز " القاتلة، وأنصتّ لمحدثي..

"إلى هذا الحد؟!.. لحظة واحدة من فضلك.."

لحظات صمت..

"داليا، كيف حالك أيتها العزيزة..!"

"الحمد لله يا رأفت.. بالمناسبة: ما لصوتك قد تغير هكذا؟!"

"صوتي فقط؟!.. الحمد لله على كل حال.."

قلت في سرعة..

" رأفت.. أعرف أن الظروف غير ملائمة، وأن موضوع كهذا لا تصلح مناقشته عبر الهاتف.. ولكن من فضلك استمع إلي.. إن " نيرمين على وشك الجنون.."

"مَن؟!!"

" نيرمين يا رأفت..!"

" من نيرمين...؟!"

"أعلم إن هذا عسير عليك، ولكن من فضلك يجب أن تساعدها.. إنها تحتاج إليك، وأنت تعلم كما أعلم جيدا أنك ما زلت.. ما زلت تحبها!!"

"أحب من؟!.. هل أنت محمومة يا داليا.. لا أعرف عمن تتحدثين.. من نيرمين هذه؟!"

"يا رأفت...."

"يا داليا حرام عليك، إنني مريض وعلى وشك الموت.. أقسم إنني لا أعرف عمن تتحدثين.. وعلى فكرة: لقد تذكرت الآن.. هناك من اتصلت بي منذ فترة، وقالت إنها نيرمين، وادّعت أنني أعرفها.. كما أذكر أنني سمعت اسمها مرة من رامز أخي.. ما الأمر؟!.. هل هي خدعة.. هل جننتم جميعًا، أم إنني الذي فقدت الذاكرة..؟!"

للحظة تملكني الرعب، ثم فهمت ما هنالك.. إنه بالفعل لا يذكر نيرمين.. لم يكن عدم تحدثه بشأنها إلا لسبب واحد: إنه بالفعل نسي أنه يعرفها!

تلك هي الحقيقة.. والآن فقط تذكرت فحوى الكتاب الذي أعطانيه د. سمير..

"مفاوضات إبليس "!

تذكرت عنوانه كذلك.. لطالما ألحّت علي تلك العبارة، وفشلت في تذكر أين قرأتها أو سمعتها..

وفهمت......

وتملكني رعب أكبر!

"رأفت.. انتظر معي لحظات.."

ونهضت ركضًا، كي أبتعد عن مسامع رامز.. فمن الواضح إنه لم يعرف بآخر التطورات.. وليس هذا هو الوقت الأنسب لتفسير أي شيء..

"معك!.. هل أمامك مرآة قريبة يا رأفت..؟"

أتاني صوته الساخر المليء بالحشرجة والمرارة..

"لقد أزال شريف كل المرايا من أمامي.. لماذا؟"

"من فضلك، ابحث عن واحدة بسرعة.."

واعتصرت ذاكرتي لأقصى حد، كي أتمكن من استرجاع كافة تفاصيل ذلك المشهد المفزع..

"ها هي.. ماذا لديك..؟"

قلت في سرعة..

"هل لديك أذنًا مقطوعة، وعين مطموسة بأثر يبدو كالحرق.. ولديك عشرات الجروح في عنقك ووجهك؟!"

"لا أعرف كيف عرفت، لابد أن سمير هو من أخبرك.. لكنك نسيت أنفي العظمي، وأسناني المخلوعة، وفروة رأسي نصف المسلوخة......!!"

صرخت في لوعة..

"مسلوخة؟!.. يا خبر أسود.. إذن هي مستمرة في العمل.."

"من هي؟"

" نيرمين.. ومن سواها..؟!"

"الله يخرب بيت......."

"اسمع يا رأفت، وأنصت جيدًا.. أنا أعرف مشكلتك وأعرف حلها، وأعرف من فعل بك هذا.. لا تقلق!"

"ما الذي يحدث يا داليا.. من فعل هذا بالله عليك، وما هي حكاية نيرمين هذه..؟"

"قل لي أولاً: متى تستطيع القدوم من السويس؟"

"اليوم، الآن إن أردت.. أنا لست في السويس أصلاً!.. إنني في فيلا في المعادى تخص شريف.. لكنني لم أحب أن يراني أحد وأنا على هذه الصورة.. والآن من فعلها يا داليا.. أخبريني بالله عليك.."

"حسنًا.. سوف أخبرك بكل شيء.."

سلفادور

قبل أن تتحفز لي، يجب إن تعلم تمام العلم، أنه لا ذنب لي في هذه القصة، سوى مجيئي في الأماكن والأزمنة غير المناسبة، للأشخاص غير المناسبين..!

***

منذ زمن طويل، وأنا تجتذبني فكرة واحدة: مبدأ الشر..

وقبل أن أشرح فكرتي، دعني أوضح لك نقطة صغيرة.. اسم سلفادور دالي، هو بالتأكيد اسم وهمي.. لكنني اخترته لعلاقته الواضحة بالفن التشكيلي - موضوع لعبتي اليوم - كما إنه قريب من اسمي الحقيقي إلى حد كبير..

كنت أقول: إنني تعلمت، منذ زمن، أن الفقير حين يسرق الثري؛ فإنه يسرق كي يطعم أطفاله الجياع، ويقال له لص.. لكن أحدًا لن يذكر للأبد، عدد الذين أفقرهم هذا الثري، كي يصير ثريًا..!

تعلمت - مما أجبرتني الحياة على خوضه مرغمًا، من تجارب - اختلاق الأعذار للخطاة، الذين ظلمتهم ظروفهم.. رأيي الخاص - بكل كبرياء - أن الشرّ المطلق غير موجود بصورة فعلية، على أرض الواقع.. فبداخل كل منا الشرير

والطيب؛ ولكن الفارق بين شخص وآخر هو مدى سيطرة أحد نصفيه على الآخر..

تخيل أنك سمعت حكاية عن صديقين، متلازمين منذ سنوات طويلة، ثم ذات يوم، بينما هما يلعبان الورق، طعن أحدهما الآخر حتى الموت، من أجل المال!

بالتأكيد لو سمعت مثل هذه القصة لقلت: يا للشر المطلق.. لم يعد في الدنيا خير يا (جدعان)!

ولكن لو سمحت لي، لشرحت لك قصة الأم المريضة، التي توشك على الموت، لأن زجاجة الدواء قد نفدت.. عن الحظ العاثر الذي تسبب في طرده من وظيفته، وأضاع منه كل مدخراته على علاج أمه، وبلا جدوى.. عن حبيبة عمره، التي تزوجت بغيره، لأنه لم يستطع إهدائها شبكة بقيمة عشرة الألف جنيه.. عن الديون التي لاحقته، والسجن الذي فتح له أبوابه عن سعة..

عن صديق عمره الثرى، الذي كان يمكنه إنقاذه من الديون، ومساعدته في علاج أمه.. و دون أن تنقص من ثروته شيئًا.. والذي كان يمكنه مشاركته في مشروع تجارى، يشارك فيه بمجهوده.. وهو إن كان عثر الحظ فإنه ليس غبيًا.. وبتمويل

جيد، تستطيع أفكاره المبتكرة، أن تصعّد أي مشروع تجاري مهما كان.. حتى وإن كان سيبيع نعناعًا في مصر الجديدة!

وبرغم كل ذلك، إلا إنه لم يفعل.. بل راهنه على حب عمره، وحلم عمره، وفقر عمره، ونحس عمره.. بمئة ألف جنيه، مقابل ربع جنيه..

وبعد أن اتّقد الأمل في قلبه، وبدأ يربح.. بدأ صديقه الثري يغش في اللعب، كأن هذا كان ينقصه...!

ويبدو أنه قال كلمة في غير موضعها، كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير..

إن لكل إنسان طاقة.. وهو قد انتهت قدرته على التحمل، عند هذا الحد..

تسألني: هل تعنى أنه أصاب بقتل صديقه؟!

أجيب: بالطبع لا.. ولكن لنكن - من فضلكم - على شيء من الإنصاف.. فلو كان أحدنا في مكان الفتى، لكان سيتصرف بذات الأسلوب..

ولاحظ أن لكل إنسان تكوين نفسي مختلف عن الآخرين، ومقاييس أحكام مختلفة.. وعلى كل حال، ليس القتل على هذه الدرجة من الصعوبة، حين تصل حالتك لمستوى معين من

الغضب، والشعور بأنك مقيد ذليل، ومرارة لا يفارق حلقك طعمها.. وكلنا مر بتلك اللحظات على مستوى ما..

هذا هو رأيي، نعم.. وهو رأي لا يجبرك على شيء..

لذلك، إن تعاطفت في النهاية مع المجرم القاتل، فلا تلمني أن استمعت إلى كلماتي، ثم رحلت وحملت فأسًا، فقتلت كل من يتنفس تحت سقف دارك.. فهذا هو عين الظلم حقا!

لماذا قتلتهم.. لأنه لم يعد في الدنيا خير يا (جدعان)...!

تلك هي مفاوضات الشيطان.. اقبلها أو ارفضها.. فإن قبلتها، فليست لديك الفرصة لتغيير قواعدها.. وإن رفضتها، فلا تعط أذنك لـــ "سلفادور دالي" مرة ثانية!

***

كثيرًا ما قيل لي، إن العالم قد أعماه الحقد وأغرقه الشر.. فمن واجبك ألا تزيد الطين بلّـــة!

لكنني في كل مرة، كنت أفضل الصمت.. ربما الابتسام مشفقًا.. إن هذا – على كل حال – أفضل من التصريح بأنني من قام بعجْن هذا الطين منذ البداية!

***

أنت الآن تتحرق شوقًا لمعرفة شخصيتي الحقيقية..

ربما كنت ذكيًا، وحصرت الشكوك في شخصين لا ثالث لهما.. ولربما كنت غبيًا.. وحصرت الشكوك في ثلاثة أشخاص لا رابع لهم.. دعك من هذه الألغاز الصبيانية، ولنتحدث قليلاً بشيء من المنطق..

إنني الآن – وللمرة الأولى والأخيرة – سوف أسمح لنصفى الطيب، بالانتصار لدقيقة واحدة..

في الحقيقة يجب أن تعلم أولاً، أنني لست جزءً من أي شخص.. بل إن بداخل كل شخص جزءً منّي أنا..

أنا في داخلك، بالرغم من أنني أخاطبك الآن.. وستجدني بداخل نيرمين المريضة المسكينة.. وبداخل رأفت المغلوب على أمره.. وبداخل رامز، الذي تعلّم كيف يقدر الجمال والفن والصداقة والحب.. وبداخل د. سمير الذي أخذ على عاتقه مسؤولية معافاة الناس من الحزن والاكتئاب، وادخارهما لنفسه!.. وبدخل داليا الصديقة المخلصة.. وبداخل د. سها الأم الفاضلة.. وبداخل الحاج صالح العجوز الطيب.. وبداخل شريف، الذي يمتلك فيلا رائعة بالمعادي. بمرور الوقت، سوف تتعلم كيف تعتبرها مزية، تضاف للمزايا الأخلاقية الأخرى!!

ستجدني بداخل الأخوات الثلاث، اللائي يشبهن طاقم أكواب العصير.. هل تذكرهن؟!

ستجدني بداخل كل بطل في هذه القصة.. وبداخل كل كومبارس صامت.. ستجدني بداخل كل علبة صغيرة مغلقة.. وبداخل كل صندوق خشبي مستطيل.. ومحبوس بداخل كل خاتم ذي فص زمردي.. وخلف كل جدار، وتحت كل سرير..

وهى حقيقة تحتاج منك إلى الكثير من العبقرية، كي تدركها وحدك.. العبقرية والشجاعة..

إن مستوى الذكاء العادي في هذا الزمان، لم يعد يكفي ولا يغني.. والذكي مثله كمثل الملياردير، بعد قرن من هذا الزمان!

لكي تدرك الحقائق المطلقة - وتمتلك القدرة على الإيمان بها - يتعين عليك امتلاك خمسين قدرة خارقة، وسبعين موهبة نادرة على الأقل..

وتذكر.. أنك في زمن الحرام.. إلا قليل!

لذا فلا تثق في أي شخص.. لا تعط الأمان لمن منحك حياته.. لربما كان يريد في المقابل حياتك وحياة كل من عرفت...!

لي كلمة أخيرة، قبل أن تنتهي الدقيقة الخاصة بنصفي الطيب..

هل تريد أن تعلم حقيقة من أنا؟!

حسن.. أنا الماء بداخل ثنايا مجتمع، يشبه قطعة الإسفنج في خواصها الفيزيائية والاجتماعية!

لعل هذا يساعدك إلى حد ما..!

***

ولنا عودة للكلام المفيد..

أنت تعلم جيدًا كم أحبك، وكم أهتم لأمرك...!

دعك من كل هؤلاء الدخلاء، فإنهم في النهاية ليسوا أكثر من مجرد وحوش، ترغب في إحباطك وسرقة أمنياتك وإتلاف أملك..

لذا..

إن أردت أن تنجح في حياتك وتصل لمرادك، فعليك التمسك بمبدأ واحد مهم - بالطبع ليس الغاية تبرر الوسيلة، فنحن ما زلنا في بداية الدرس.. مرحلة (جرّ رِجل) كما يقال - وهو:

"اصنع من جرح الماضي علاجا للمستقبل.. يكن حاضرك سعيدًا باسمًا.."

إن النفوس -كما تعلم- أصبحت شريرة، ربما أكثر من اللازم، لذا فعليك بالاحتراس من الغدر.. من الخيانة.. من الاستغلال.. من الرقة.. من النعومة.. من الحب!

ضع عينًا في مؤخرة رأسك دائمًا..

خُن قبل أن تخان!

ولكن، فقط إن توقعت الخيانة.. إن راودك الشك في وقوعها.. إن شعرت بقرب حدوثها.. حتى لا تظلم الأبرياء!!

اتركهم قبل أن يتركوك وحيدًا..

تقول إن هذا لا يحل المشكلة، بل يعجّل بوحدتك..

لا تحزن.. فنحن معًا للنهاية!

ولتتأمل معي وتضحك..

إن كان رأفت قد فقد وجهه بلا ذنب.. ونيرمين فقدت عقلها بلا ذنب.. و سمير فقد حبه بلا ذنب.. وداليا فقدت صديقتها بلا ذنب.. و سها فقدت ابنتها بلا ذنب.. ورامز فقد أخاه بلا ذنب.. إن كانوا جميعًا بلا ذنب جنوه.. فمن الجاني هنا....؟!

أنا..؟!

يا للحياة.......!

تقول إن بعضهم لم (يفقِد) بالمعنى الحرفي للكلمة..

ليس الفقد فقط أن يموت الفقيد.. بل إن أقل تغير في خواص الشخص - أو الشيء - المعنيّ، يفقده شخصيته.. أو كما أقول دائما: ليس كي تفقد كوبًا من الماء لابد من أن تسكبه في الحوض.. بل إن قطرة واحدة من الحبر، كفيلة بتحويل الماء إلى شيء آخر غير صالح للاستخدام..

هذا هو المعنى الحقيقي للفقْد: أنا أريدك لأنك هكذا.. وهذا هو ما أعرفه..

أما أن تقول إنك تحبني، ولكنك تتمنى إن كان أنفي أصغر قليلاً.. فإن العالم ممتلئ بالأنوف الصغيرة.. فلا تضيع وقتك معي!

أسمعك تقول: لا بل أريدك أنت كما أنت.. إلا أن تكون أنفك أصغر قليلا..!

أنت مصرّ إذًا!!!..

في هذه الحالة.. اسمح لي — أو لا تسمح - أنت أحمق..!

أحمق لأنك في الواقع لا تحبني.. بل إنك تعتبرني أكثر المخلوقات نُقصانًا على وجه الأرض.. والدليل أنني استفززتك، لدرجة أنك قررت أن تغيرني وحدي دون سواي!

وأحمق لأن الإنسان (التفصيل) هو اختراع لم يدخل حيز التنفيذ بعد.. ربما فعلها "ترزي" ياباني بعد خمس سنوات.. دعك من فيكتور فرانكنشتاين وتخاريفه.. فالرجل الذي يبذل الجهد والمال والدم والعرق، ويتحدى المجتمع كي ينتج مسخًا، فهو ليس بعالم.. بل إنه أولى البرية بالجهل والتخلف..

هذا بالنسبة لمبدأ الفقد.. وهذا هو ما نراه ونقابله يوميًا، حتى أنك لا تملك أن تحكم على شخص بعينه بالشر..

فقط نحكم على المجتمع ككل، فنقول لم يعد في الدنيا خير يا (جدعان)!

وهذا هو الهدف الأساسي..!

من المعروف أن الشيء المعمم يكتسب قوة كاسحة بشكل تلقائي.. لأنه يصير هو الواقع الوحيد..

هكذا نشأت.. وعلى هذا عشت.. وكما أنا سأموت..

أنصحك نصيحة أخيرة: لا تخجل من لمحات الشر بداخلك، بل اخجل من الشر الأعلى من المعدل السائد!

إن كان معدّل السرقة اليومي للفرد تسعة جنيهات.. وأنت سرقت عشرًا.. فلا تخجل إلا من هذا الجنيه!

ولكن من فضلك.. لا تدّعي الشرف إن سرقت ثمانية...!

وتذكر: لا توجد أيادٍ بيضاء في هذا المنجم!

تلك هي مفاوضات الشيطان..

اقبلها أو ارفضها.. فإن قبلتها، فليست لديك الفرصة لتغيير قواعدها.. وإن رفضتها..

فلا تعط أذنك لـــ سلفادور دالي مرة ثالثة..!!

لحظات قاسية مرت بي، وأنا جالس نفس جلستي إلى مكتبي بالعيادة، التي أوقفت نشاطها مؤقتًا، وأعطيت عم طوخي – تومرجيها – إجازة مفتوحة، يعلم الله متى تنتهي.. أحاول إيجاد أي حل لتلك الكارثة التي حلت بـــــ "رأفت"، دون جدوى في الواقع..

حتى د. عدلي، قد وعدني بأن يمر بي في العيادة، لكنني لم أره منذ ذلك الحين.. وفي ذلك النهار بالذات، كنت علي استعداد للتضحية بأي شيء في سبيل إنهاء هذه الأزمة، ولو كلفني الأمر حياتي نفسها. ليس هذا عائدًا لشدة إخلاصي لذلك الصديق المسكين، وشعوري بالمسؤولية تجاه أزمته فقط.. بل هناك أيضًا تلك التبعة الحديثة، التي طفت علي سطح حياتي مؤخرًا.. وهي إنني صرت لا أنام..!

لم أعد أستطيع النوم بالمرة.. إنه النهار الثالث لي على التوالي بلا نوم لساعة واحدة متصلة، مما أشعرني بأنني على حافة الجنون..

بجوار مكتبي، وضعت منضدة صغيرة، عليها معدات صنع قهوتي. وهي بالكاد تكفي لاستيعاب ذلك الكم المهول من

أقداح وأكواب وكؤوس القهوة الفارغة، والتي غالبًا ما كانت ذات سكر أعلى مما أردت، رغم حرصي علي هذه النقطة مع كل قدح جديد..

هناك أزمة أخرى صغيرة.. لا أعرف ماذا سيكون مصيري إذا نفدت تلك الأكواب الزجاجية النظيفة بجواري! بالتأكيد سأضطر للذهاب إلي المطبخ، وهي مغامرة، سأتعلم منها - متأخرًا - ضرورة استعمال الأكواب الورقية الصحية.

كما أن مطفأة التبغ — تلك التحفة الكريستالية - فوق مكتبي، قد طفحت بمحتواها منذ زمن، في مشهد مأساوي، يذكرك بمستوقدات القمامة..

دعك من لحيتي النامية، والرائحة الخانقة لمكتب مغلق، يفتقر إلى التهوية، و.. و.. و.........

الخلاصة.. إنني كنت أحيا على حافة فوهة بركان.. وكان لابد من معالجة كل هذه الفوضى.

استدرت بمقعدي الدوار نحو الكمبيوتر، وأنهيت عمل ذلك البرنامج السخيف، الذي لا يكف عن لعب المقطوعات الكلاسيّة بلا توقف.. لقد استحالت الموسيقى، بالنسبة لي، من شيء حالم جميل يدعو إلى الهدوء، إلي مجرد طنين مزعج يصم

الآذان ويزيد من توتري.. وفى درج المكتب، وجدت علبة أقراص بيضاء.. تناولت واحدًا منها دِون أن أحفل بالاسم المكتوب عليها.. ثم أغلقت الدرج في حدة..

إن د.حسن عدلي هو عالم نفسي آخر.. لكنه دخل المجال من باب كلية الآداب لا الطب.. رجل ثري واسع العلم، في منتصف العقد الخامس، طويل القامة، يملك شخصية كاسحة، به شيء من غرابة الأطوار ولمحة من القدم.. لكنه يعرف الكثير ولا شك.. له مؤلفات عدة في الطب النفسي وعلم الاجتماع.. عضو بالجمعية البريطانية لتحضير الأرواح.. وهو الشخص الذي نصحني بعدم قراءة ذلك الكتاب الملعون.. قيل إنه الوحيد الذي قرأ الكتاب و لم يتأثر به لسبب ما.. وأزعم أنه يعرف ما يجب عمله..

لكنه، في هذه اللحظة، كان بالنسبة لي أشبه بقاموس إلكتروني معطل، بلا مصدر للطاقة..

***

عندما أتاني رأفت حاملاً أذنه في علبة من القطيفة، ورجاني أن أتصرف قبل أن يتحلل حيًا.. لم أحاول استخدام جراحة الليزر، ولا عمليات إعادة بناء الخلايا.. وبالطبع لم أجد جدوى

من إبلاغ الشرطة.. وكنت مؤمنًا بأنه لو كان هناك مخلوق يستطيع مساعدته، فهو ولا شك د. عدلي..

لكنني وجدته قد سافر إلى جينيف، لحضور فعاليات مؤتمر ما، ولم يعد بعد.. إذًا.. ليس أمامنا سوى الانتظار..

"اسمع، أنت لن تعود للدار.. لا ينبغي أن تراك (الحاجة) وأنت بهذا الشكل.. ستنتظر حتى تنتهي الأزمة، وبإذن الله لن يطول انتظارنا."

"وإلى أين أذهب في رأيك؟.. ثم إن عملي... "

"أنت في كل الأحوال، مضطر للابتعاد عن العمل مؤقتًا.. ربما كان من الأفضل أن تتقدم بطلب إجازة طويلة.. أما عن المكان فلا تحمل همًا، ستظل معي.. ما رأيك؟"

"لا أظن.. ليس لك ذنب في تحمل هذا الوضع.. ثم إنني – كما تعلم– أجد راحتي في الحياة بمفردي.. رامز تقريبًا غير متواجد بالمترل.. وأمي لم تعد صحتها كما كانت، لدرجة أنها لا تغادر فراشها إلا في مناسبات محدودة.. ربما أقيم في فندق ما.. وهي فرصة طيبة لـــ"رامز" كي يبدأ في الاعتناء بأمه.."

"أنت أيضا تحتاج لعناية من نوع خاص.. أظن أن لدى فكرة جيدة.. ربما لا تمانع في المكوث عندي في المصحة لمدة

قصيرة.. إنها مكان رائع، يصلح للرعاية الصحية والاختفاء معًا.."

رمقني طويلاً، قبل أن يهز رأسه رافضًا.. كنت أعلم أنه سوف يرفض، إنه عنيد إلى درجة (الرخامة)..

كان لديّ صديق يدعى شريف، يعمل في مجال السياحة. لديه فيلا جميلة في المعادى، تتمتع بالهدوء والخصوصية، وهذا هو المطلوب.. وكان قلّما يتواجد بها، نظرًا لظروف عمله.. والأجمل أنه كان مدينًا لي بخدمة لا ترد، على طريقة زعماء المافيا!

عرضت عليه أن يستضيف مريضًا لدي، لمدة شهر على الأكثر. وأعطيته فكرة مبهمة عن (ذلك الشيء) الذي يعانيه رأفت..

"هل تعني أنه ممسوس أو ما إلى ذلك؟!.. سمير...!"

"لا تخش شيئًا يا شريف، فهو ليس ممسوسًا.. ربما كان منظره مرعبًا، لكنني لا أعتقد أنك ستعرض حالته على الجيران.. إن الفضائح مسؤوليتك وحدك!"

وهكذا تم اللقاء الأول في مكتبي..

"يا له من مسكين.. ترى هل من المحتمل أن يسوء الوضع أكثر؟!"

"بل من المؤكد!!.. لا أحب خداعك منذ البداية!"

"....!"

"لا تخف.. إنه ليس مُعديًا!"

وكان الاتفاق أن يترك رأفت مع عم حجازي - أثناء سفرياته - كي يرعى أحدهما الآخر..

إن العم حجازي، خادم شريف العجوز.. هو رجل جاوز الستين، ومن حقه بعض الرعاية هو الآخر.. كما إن وجود رأفت سوف يضفي على البيت بعض الحيوية، مما يقلل من فرص اللصوص والفضوليين..

وفى أثناء تواجد شريف، يمكنه الانتفاع بسيارة رأفت الخاصة.. لأن صاحبها - بديهيًا - لن يتحرك بها..

كان الاتفاق - إلى حد ما - متوازنًا.. وسرني أن شريف لم يعترض، ولم يُفكر أصلاً..

"نقطة أخيرة.. هناك ثلاثة أشياء أساسية، أرجو أن تمنع عنهم رأفت، مهما حدث: استعمال المرايا.. استقبال المكالمات

الهاتفية، إلا إن كانت مني.. وأخيرًا، الآلات الحادة بأنواعها..."

"هل تعتقد أن..."

"لنحرص على الأقل ألا يفكر في هذا..."

***

بعدها لم أجد في نفسي أي قدرة على مواصلة العمل، فأغلقت العيادة على نفسي، وأعدت طوخي العجوز إلى الإسكندرية.. وغرقت في بحر من الهموم والأفكار، والقهوة الرديئة..

المشكلة أن د. عدلي غير موجود.. الكتاب ذاته – ذلك اللعين – لا أعلم أين هو الآن.. لأحاول البحث عن الكتاب من جديد، لربما كانت هناك نهاية لذلك السيرك.. يا رب!

***

ظل رأفت مقيمًا لدى شريف لمدة أربعة أيام بلا مشاكل.. وقد اتصل بي الأخير، وأبلغني أنه مسافر إلى أسوان عدة أيام، لإنهاء بعض الأعمال.. وقال إن رأفت بخير حال، ويرسل لي تحياته..

"ألا توجد تطورات في حالته مؤخرًا...؟"

"تطورات من أي نوع؟!"

"الحمد لله.. طمأن الله قلبك!"

وكان رأفت - بناءً على طلبي- قد أخبر الجميع أنه خارج القاهرة لفترة طويلة، حتى يمن الله علينا بمخرج من ذلك الكرب. ومن ناحية أخرى، كنت أواصل محاولاتي في التوصل لمكان د. عدلي، الذي يبدو أن الحياة قد راقت له بالخارج..

"كيف حالك يا دكتور.. لعلك بخير..!"

لم أصدق أذني في البداية، عندما بلغها صوت الرجل..

"هل أنت عدلي فعلاً؟!.. ظننتك مت.."

أتاني صوته الضاحك عبر الهاتف..

"أخبروني إنك اتصلت بي كثيرًا...!"

"لابد وأن أراك قريبا.. لدي - بعيد عنك - كارثة...!"

يبدو أنه استشعر بعض الجدية والتلهف في صوتي، فاختفت نغمة المرح من نبرة صوته..

"ما الأمر يا سمير؟!"

"مصيبة.. لا يمكنني الشرح عبر الهاتف.. قد يكون هناك من يتلصص علينا.. لا توجد أيادٍ بيضاء في هذا المنجم كما تعلم...!"

سكت طويلاً.. وفى النهاية قال بهدوء غريب..

"لا تقلق.. سأراك قريبا بإذن الله.."

لاحظت أنه لم يهتم بنوع الكارثة، المهم أنه قد وعد بالمرور.. إن هذا ليرفع بعض الهم عن قلبي..

***

كان د. عدلي قد وعد بأن يمر بعيادتي خلال أيام، وكنت قد أمهلت نفسي أسبوعًا، قبل أن أعاود الاتصال به.. واليوم هو الثالث ولم يأت، وقد عدنا لذات لحظة بداية هذا الفصل.. هكذا يمكنك تخيل حالتي، حينما فوجئت بـــ "رأفت" وهو يقتحم مكتبي صارخًا بصوت رهيب..

"أنظر كيف صار منظري يا سمير...!"

كان يبدو وكأنه قد قبّل عجلات قطار مسرع.. عشرات الخدوش والجروح تملأ وجهه ورأسه وعنقه.. وكان بأذن واحدة وعين واحدة.. ويتكلم بصوت عجيب، كأنه يستخدم حنجرة ذئب عجوز!

تجمدت في مكاني، وانحشر لساني في حلقي من شدة الارتياع..

"مم.. ننن.. تش..تتتش...!!"

تقدم نحوي بهدوء، وهو يحاذر أن يصطدم بقوائم المنضدة.. من الواضح أنه لم يعتد بعد الرؤية بعين واحدة..

جلس أمامي، وقال شيئًا لم أتبينه وهو يرمقني دامعًا..

"لماذا كلفت نفسك مشقة المجيء يا رأفت.. كان بإمكانك أن تكلمني، وكنت سأوافيك فورًا.."

أطرق برأسه، و قد دخل في نوبة من النشيـــج.. ثم قال..

"أنت قلت إن ذلك الطبيب قد عاد.. أليس كذلك؟!"

"لقد أوشك كل شيء على الانتهاء يا عزيزي، لا تيأس.. هل لك في قدح من القهوة؟!"

ونهضت من مجلسي و أنا أستعيذ بالله، ثم جلست على المقعد المواجه له و أنا أقوم بإعداد القهوة – التي يسرني أنه يشربها سكر زيادة! – محاذرًا النظر المباشر لوجهه..

"متى...!"

"اليوم.. الرابعة فجرًا..!"

"كنت نائمًا.. أليس كذلك؟"

"بلى.. ولقد رأيت....."

"ماذا رأيت...؟"

وضع وجهه في الأرض، وانطلق في نوبة من السعال الجاف..

"رأيتك أنت.. ثانية!"

" كابوس آخر؟!"

هز رأسه أن نعم..

"لكنني هذه المرة، تمكنت من التغلب عليك، بعدما فعلتها و(شلفطتني) على هذا النحو!.. وهذه المرة كنت أعلم أنه أنت..!"

ومد يده في جيبه..

"وللمرة الثانية كان معك...!"

وأخرج شيئًا لم تصدق عيني رؤيته...

".. هذا.. هل رأيته من قبل؟!"

وفي كفي وجدت خنجرًا فضيًا جميل الشكل.. تذكرته على الفور..!

"... وظل سمير يرمق الخنجر مذهولاً.. قال إنه لم يره من قبل.. و لم يصدق كل ما رويته عن الكابوس وما إلى ذلك..!"

قالها رأفت بلهجة محايدة.. ثم أطرق برأسه، وظل يتأمل الموكيت الأحمر الذي يكسو أرضية حجرة المعيشة بشقتي..

كنت قد اتفقت معه على لقاء، وقد تم في ذات الليلة.. وافاني بسيارته أمام دار الأوبرا، وكان رامز قد انصرف، دون أن يعلم بأن شقيقه على وشك المجيء.. طلب رأفت أن نتحدث في مكان مغلق.. هكذا انطلق بي إلى شقتي الصغيرة البائسة بالدقي.. ومن حسن الحظ أنني أحيا بها وحيدة، بعد رحيل ماما.. فاليوم أنا في أغنى حالاتي عن النظرات الفضولية..

وهكذا جلسنا نحتسي الكاكاو الساخن.. وبهذه العبارة اختتم حديثه، وهو يحكي آخر لقاءاته بالدكتور سمير درويش..

سألته وأنا أتربع في جلستي فوق مقعدي العريض، وأتشمم قدحي المنعش..

"كان هذا منذ أربعة أيام.. أ ليس كذلك؟"

"أربعة، أو خمسة!"

"هل يمكنك أن تصف لي الكابوس مرة ثانية..؟"

عندما توقفت أمامي سيارة رأفت المألوفة، استعاد ذهني ذلك المشهد المريع الذي رأيته في مرسم نيرمين.. وأضفت إليه المستجدات، التي شرحها لي رأفت نفسه عبر الهاتف.. وعندما رأيت وجهه من خلال الباب المفتوح - لأول مرة منذ أسابيع - أعجبتني دقة وصفه وملاحظته، لكن هذا لم يخفف من أثر الصدمة التي تلقيتها..!

لقد كنت أشعر بأنني في سيارة واحدة مع مسخ من عالم آخر.. لكن الرعب لم يكن شعوري، حيال وجودي مع هذا المسخ..

في الحقيقة - لا أخفي عليك، فأنت صديقي! - كان هناك شعورًا آخر يسيطر علي.. هل يمكنك توقعه؟

خطأ..!

بل كان الانتصار، نعم!.. لقد نسي نيرمين للأبد..

وحتى لو تذكرها، ترى كيف سترضى به، بعد ما صار إليه حاله؟! كيف، إن كانت تركته بإرادتها وهو أفضل حالاً؟!

أنا من تمنيته منذ عرفته، وأقبَل به بعد ما رأيت، وسأقبل به وإن أصابه العته والشلل، وفقد أطرافه وحواسه وذاكرته.. سأقبل به وإن كان جثة هامدة.. سأقبل أن ألملم أشلاءه بملقط

وعدسة مكبرة، وأدفنها في أقصى الصحراء.. و أبني لنفسي بيتًا بجانبه.. وأحيا فيه وحيدة، للأبد...

أنا سأقبل.. ولكنه هل يقبل هو..............؟

أوقفت سيل خواطري، وكبحت دموعي حتى أتمكن من متابعة حديثه.. وإن فشلت تمامًا في منع نفسي من الشعور بالسعادة لوجوده معي، وحدنا..!

حتى وإن كنا هنا للحديث حول نيرمين..!

و ما زال رأفت يحكي..

***

"... وعندما قام بإحداث هذا الجرح.." - وأشار إلى عنقه - ".. تمكنت من القبض على يده، واستخلصت الخنجر منها، لكنه فر من أمامي، قبل أن أقضي عليه.. هكذا دسست الخنجر في جيبي!"

قلت وأنا أحتوى كل هذا التشوّه بين أحضان نظراتي..

"وعندما استيقظت، وجدته في جيبك بالفعل.."

"هذا حق!.. وهى المرة الأولى التي أراه فيها حقًا.. أعني في أرض الواقع!"

"نفس الخنجر؟!"

"هو نفسه في كل مرة.. ومن المدهش أن شريف حين عاد من السفر، رآه وتذكره.. كان هذا ليلة أمس، وقد قال لي، وهو لا يصدق ما حدث خلال فترة سفره، إنه ملك لـــ"سمير"، وقد كان ضائعًا عندي.. أين وجدته؟!"

تأملته قليلاً، وقلت متراجعة بظهري..

"وأنت لا تصدق د. سمير، وتعتقد أنه السبب فيما يحدث.. أليس كذلك؟"

"على العكس تمامًا.. ربما كان هذا السلاح لـــ "سمير" فعلاً، وهو ينفي ذلك لسبب ما، لكن هذا لا يثبت تورّطه.. وربما كان ما يحدث لي حقيقيًا..."

ثم أطلق تنهيدة حارة، ألهبت روحي، وهو يردف بصوت مرعوب..

"لكن هذا يحدث لي هكذا..!"

وبدا للحظة و كأنه يعجز عن التعبير..

".. تلقائيًا.. بلا فاعل!"

قلت، متمنية لو كان لديه شعر يصلح لتمرير أصابعي من خلاله، بدلاً من هذه الجمجمة المسلوخة!

"بل هناك فاعل يا عزيزي.. ربما كان غير مدرك لما يفعل، لكنه موجود.. وهناك طريقة لإيقافه، وإعادة كل شيء لما كان عليه.."

"ستقولين نيرمين ثانية...؟!"

"هذه هي البداية.. يجب أن تتذكر من هي نيرمين أولاً.. بعدها نتكلم!"

***

حاولت بكل السبل جعله يتذكرها..

"لقد قلت لي ذات يوم، إنك في بداية عملي بمكتب المهندس نصر، حاولت التقرب إليّ، و.. هل تذكر هذا الحديث..؟!"

قال مرتبكًا..

"بالتأكيد، ولكن ما الذي...؟"

"هل تذكر إذن تلك الفتاة، التي أبلغتك إنني قلت أشياء سيئة بصددك؟"

"وهل فعلتِ هذا حقا؟"

تنهدت في يأس.. كنت أعلم منذ البداية أن الحل الوحيد لجعله يتذكرها هو أن يراها رأي العين.. قلت..

"اسمع يا بني.. أنت واقع تحت تأثير لعنة.. ok؟!.. والمتسبب فيها هو صديقة لنا، تدعى نيرمين.. لقد كانت منذ أشهر قليلة خطيبتك أنت بالذات.. لكنكما انفصلتما فجأة، ثم بدأ كل شيء.. أعني هذه الجروح وما إلى ذلك.. أنا أكثر من يعلم كم كانت تحبك تلك الفتاة.. من غير المعقول أن يتحول كل هذا الحب إلى كراهية مطلقة.. والأدهى، أن يكون هذا بلا سبب.. إذن التفسير المنطقي الوحيد، أنها ليست السبب الرئيس للعنتك.. بل إنها هي الأخرى واقعة تحت تأثير سيطرة خارجية تدفعها – رغمًا عنها – للقيام بذلك.. بدليل أن جزءً أساسيا في هذه اللعنة هو نسيانك التام لها.. فهمت؟!.. لو كانت هي الفاعلة لما كانت لتجعلك تنساها.. مستحيل!"

ظل يرمقني بعينه الوحيدة كالأبله للحظات، ثم قال..

"إن كانت قصتك هذه حقيقية – بافتراض أنك بكامل قواك العقلية لا سمح الله! – فكيف تفعل نيرمين هذه ما تفعل؟!"

"هل تذكر اللوحة التي رسمتها لك نيرمين، منذ أقلّ من عامين؟"

"..............!"

قلت مستسلمة..

"حسنًا.. إن نيرمين هي الأخرى في حالة يرثى لها.. وهى الآن تقريبًا تعاني الجنون المطبق.. إذن الحل الوحيد، هو زيارتها في مرسمها.. هذا سيجعلك تتذكر، وسيجعلها تستعيد بعض صوابها..!"

ثم قلت، دون أن أبذل مجهودًا في منع دموعي هذه المرة..

"ستلقاها، وسنجد مئات الحلول إن شاء الله.. يمكنك إقناعها بالمنطق.. أو عُد إليها وطيّب خاطرها.. أو حتى اقتلها لتسترِح من كل هذا!.. المهم أن بداية الخيط توجد هناك.. سنذهب، وليكن بعدها ما يكون.. ok؟!"

"إنني أثق بك كثيرًا يا داليا.. " - قالها متألما - "ولكن، لا يمكنني تصديق أن هناك واحدة...!"

"أعلم أن هذا عصيٌّ عليك.. لكنك سترى!"

"هل حكت لك نيرمين هذه أي شيء بخصوص هذه اللعنة وكل تلك الأشياء؟ "

قلت..

"كلا بالطبع.. إنها في حالة غريبة، تبدو كالمغيبة، ولا تتحدث كثيرًا.. ثم إنها إن كانت تعلم بوجود سيطرة على

عقلها، فأعتقد أن هذا يلغي السيطرة نفسها تلقائيًا!.. أليس كذلك؟"

رمقني مهتمًا، فقلت..

"هل تعتقد أنك بعد انتهاء هذه الأزمة.. أعني.. سوف يمكنك التفكير في الارتباط مجددًا؟!"

قال بذات الاهتمام و ذات النظرة..

" إنني بالفعل أثق بك كثيرًا..!"

أشعرتني كلماته بالسعادة وبالتوجس معًا، لكنه أردف باهتمام أشد..

"ولكن، إن لم تكن قد روت لك أي شيء، فمن أين لك بكل هذا العلم؟!"

رامز

في البداية، لم أهتم بما رأيت.. أن تراودك الكوابيس يوميًا، وأنت في مثل هذه الحالة النفسية، لهو شيء عادي.. مقبول.. ربما كان محببًا بعض الشيء..

تخيل أن تنهض في الصباح، لتجد أن كل تلك الأهوال كانت محض وهم وأنك هنا.. بالتأكيد لست في الجنة، ولكنك - على الأقل - في الطبيعي المعتاد، مهما كان سيئًا..!

مهما كان مستوى السوء الذي نحياه، فهو على الأقل مألوفًا ومعتادًا.. إن الكابوس الحقيقي هو أن تفتح الباب لتجد محصّل الكهرباء يبتسم في وحشية.. تتخطاه مرعوبًا، وتستنجد بأول من يقابلك.. فتكتشف أنه رئيسك في العمل يكشر عن أنيابه.. من ثَم تركض في الطريق، حتى تسقط في بالوعة مفتوحة، فتلقى نفسك وقد سقطت حيث يجتمعن..

من هن؟!

بالتأكيد ستجد كل فتاة قابلتها في حياتك هناك.. كل من قابلتها، أو واعدتها، أو أهديتها حتى ابتسامة أو زهرة أو شطيرة طعمية!

ويظل السؤال الأبدي بلا جواب: ترى من أخبرهن؟!.. كيف تلاقين وتعارفن أصلاً؟!

يا للوحشية!

الآن فقط، عرفت أنني مدينٌ بأفضال كثيرة لكل وحش أو مسخ أو كلب مسعور طاردني أثناء نومي!

في البداية لم أهتم بما رأيت.. وفي النهاية علمت مستسلمًا أن اهتمامي لم يكن ليحقق أي اختلاف..

***

"هل يمكنني الجلوس بجوارك.. لا أحب الشعور بأنني مريض!"

أشار إليّ د. سمير ألا مشكلة هنالك، فنهضت من فوق الشيزلونج، وتوجهت صوب المكتب لأجلس هناك، ونظر لي بما معناه أنه في انتظاري لأتكلم، فنقلت بصري بينه وبين جهاز الكمبيوتر محرجًا..

"ماذا هناك يا رامز؟!"

"ما هذه الموسيقى الجميلة؟!"

"إنها لـــ "بيتهوفن".. لديّ هنا باخ، وموتسارت، وعمر خيرت، وياسر عبد الرحمن.. إن أردت!"

"جميل جدًا.....!"

ثم قلت بعد تردد..

" ممكن تطفئه كي أستطيع أن أتكلم؟!"

رمقني للحظات، قبل أن يوقف الموسيقى..

"آسف.. إنها تشعرني بالتوتر إلى حد ما!"

"الحقيقة إنها تشعرني أنا بالتوتر إلى حد كبير.. المهم، قل لي بقى ما حكايتك.. رأفت كالعادة؟"

"لا، إنها داليا هذه المرة!"

***

رويت له لقائي الأخير بـــ داليا، والذي تم منذ ثلاثة أيام.. وكيف أنها طلبت مني أن أساعدها في إعادة رأفت لـــ نيرمين.. وكيف أنها زارت الأخيرة في مرسمها، ووجدت أنها واقعة في مشكلة.. وعندما لم يقبل أحدهم مساعدتها، تصورت أن الحل عند رأفت أخي..

بالطبع لم أقل لـــ سمير، أن داليا قد اكتشفت أن المشكلة هي مشكلة رأفت في الأساس.. وأن حلها يوجد لدى نيرمين، وليس العكس..!

لم أخبره، لأنني بالطبع لم أعرف بذلك إلا متأخرًا..

"إنها حقًا أزمة كبيرة، ولكن حلها ليس بيدي.. كما إنني - ولا تغضب مني - لا أرى أنها تمسسك بشكل مباشر.. أ ليس كذلك؟!"

وجمت للحظات، لا أدرى ماذا أقول..

"إن داليا.. تحب رأفت.. منذ البداية!!"

خلع " سمير " نظارته، و قال بهدوء..

"رامز، هل أتيتني بصفتي صديقًا لأخيك، أم بصفتي طبيبًا نفسيًا؟"

" لا أعرف.. ولكنني فقط أردت أن أتكلم.."

"حسن، تكلم كما يحلو لك.. أنا آسف!"

"منذ أيام، تراودني الكوابيس.. أشعر بأن ما حدث لأخي هو مسؤوليتي الخاصة.."

"أولاً.. ماذا حدث لأخيك بالضبط؟"

"ما تعرفه.. الجرح في وجهه و أذنه المقطوعة وهكذا.."

"(هكذا) ماذا.. حدد ما تقصده من فضلك!"

"لا أعني شيئًا محددًا.. أعني تلك الأزمة التي يمر بها.. على فكرة: أنا أعلم أنه لم يغادر القاهرة أصلا!"

"أخبرتك داليا.. أ ليس كذلك؟!"

"وهل داليا تعرف؟!"

"دعك من هذه النقطة، وقل لي: كيف تشعر بالمسؤولية، تجاه أزمة رأفت؟.. حاول أن تشرح لي ما تعنيه بدقة..."

"دعك أنت من هذه النقطة، وقل لي أين رأفت بالضبط؟.. ولماذا لم تخبرني داليا بمكانه إن كانت تعلم؟"

زفر في ضيق وقال..

"أرى أنك بحاجة لصديق مخلص، أكثر من الطبيب النفسي.. ولدى هذا الصديق نصيحة قلبية، هل تقبلها؟!"

هززت رأسي إيجابًا، فقال..

"إن صديقك ينصحك أن تعرض نفسك على طبيب نفسي!"

ثم ابتسم وهو ينهض، كي يقودني إلى حيث الشيزلونج من جديد..

"هل تراني مريضًا إلى هذا الحد؟!"

قال في صبر، وهو يعيد النظارة إلى عينيه، ثم يضع برنامج الموسيقى في وضع التشغيل مرة أخرى..

"أي حد هذا الذي تعنيه يا بني؟ الأمر بسيط للغاية.. هناك أوضاع للجلوس تسبب الراحة والاسترخاء أكثر من غيرها.. إنها مسألة فسيولوجية بحتة.. كما أن هذا الوضع سيساعدك على تذكر تفاصيل تلك الكوابيس، التي ذكرت أنك تراها يوميًا!"

أجبرت نفسي على الاسترخاء، وقلت كما أراهم يفعلون في السينما..

"في البداية كانت الكوابيس عادية غير هامة.. ظلام وغابات وثعابين، وليال بلا أقمار، عادي!.. ثم منذ يومين.. رأيت!"

"ماذا رأيت بالضبط؟!"

قلت وأنا أشعر بتوتر غير محدود..

"رأيتكم جميعًا، وقد كنت معكم!"

رمقني بفضول يشوبه التوتر، فقلت..

"كان الجميع هناك، أنت وداليا ورأفت ونيرمين.. وأنا!"

"أين كنا؟!"

"لا أعرف.. كنا في مكان عجيب.. في شارع مظلم، لم أره من قبل.. لم يكن هناك سوانا، وبدا وكأننا تقابلنا هناك مصادفة!"

لم يعلق، فقلت..

"كان الأمر يشبه مشاجرة بين الجميع.. أنت وداليا وأنا، بينما كل من نيرمين ورأفت كان واقفًا مثل الصنم بلا حراك.. كانا كأنما هما منفصلين عن المشهد، وكل منهما يقف في دائرة مرسومة بالطبشور.. وقد كان المنظر مرعبًا لأقصى حد..!"

و تملكني الانفعال، فسيطرت على نفسي بالكاد، ثم أكملت..

"لم أستوعب السبب الذي كنا نصرخ لأجله.. وشعرت بأنني أنفصل عنكم.. وتركتكم تواصلون، ثم اتجهت نحو أخي، وحاولت أن أتكلم معه.. لكنه لم يبد أدنى استجابة.. وفى لحظة رأيتك...."

قال وقد اشتعل فضوله..

"رأيتني أنا؟!"

"نعم!.. كان في جيبك خنجرًا فضيًا، أخرجته.. ثم..."

"ثم ماذا.. قُل!"

نهضت سعيًا نحوه، وكانت بجانب مكتبه منضدة صغيرة مكتظة بأقداح وأشياء أخرى.. وجدت هناك زجاجة مياه فأفرغت نصفها في جوفي، ثم جلست هناك.. لم أحب الجلوس إلى ذلك الشيزلونج، وشعرت وكأنني مقيد إليه..

"ثم رأيت.. رأيتك تغرسه في عنق داليا.. ثم تهرب، وتختفي في لمح البصر..!"

لدقائق طويلة ساد الصمت بيننا بعد عبارتي الأخيرة.. وفي النهاية نطق د. سمير بصوت يرتجف من الانفعال..

"خنجرًا فضيًا؟!.. هل أنت واثق؟!"

"كل الثقة.. وأخذت أبكي، وأنا أحاول تحريك داليا.. لكنها كانت قد فارقت الحياة!"

وبرغمي، انخرطت في نوبة من البكاء حار.. فنهض سمير، وربت على كتفي..

"بربك، إنه مجرد كابوس، والمهندسة داليا بخير حال.. هل ترغب في الاطمئنان عليها؟!"

وأشار نحوى هاتفه، فرددته في رفق شاكرًا.. أعاد الهاتف لسطح مكتبه، ثم وضع في كفي قرصًا أبيضًا كبيرًا..

"ابتلع نصفه فحسب، إنه مهدئ.."

تظاهرت بأنني أقسم القرص لنصفين، ثم ألقيت به كله في فمي دون أن يراني.. بعدها بدقائق قليلة، شعرت بأنني أستطيع مواصلة الحديث..

"هل هذا كل شيء؟"

"لا.. بعد ذلك توجهت نحو رأفت مرة أخرى.. وشرعت في الاستنجاد به.. ثم فكرت للحظات، قبل أن أمسح جزءً من الدائرة الطبشورية المحيطة به بنعل حذائي.. عندها فقط بدأ في الحركة والكلام.. بالمناسبة، كان وجهه سليمًا بلا جروح.. ولديه أذنان!"

"وماذا قال؟"

"شكرني على ما فعلت.. وعندما حاولت تكرار الأمر مع نيرمين لم تنمحِ الدائرة، فقال إنني لن أستطيع.. ويجب عليّ طلب العون من د. سمير، أي منك أنت بالذات!"

شبك أصابع كفيه..

"عظيم.. وماذا بعد؟"

"قلت: هل أنت مجنون؟.. إنه مجرم، لقد قتل الفتاة منذ لحظات أمامك.. وأشرت لجثة داليا وأنا أصرخ به.. فقال ليس هذا من أعني، أنا أعني سمير الآخر، (الكبير).. وكان يعني سمير

الحقيقي، الذي هو أنت.. وليس سمير الخاص بالحلم، كأنه كان يعرف أنني أحلم.. قال: إنني أثق به، وأوقن بأنه يعرف ما يجب فعله.."

"ثم ماذا؟"

"لا شيء.. عندما فكرت في كلامه، وانتبهت لكوني أحلم، استيقظت على الفور.. لكن قلبي كان ينبض بشدة، وكنت غارقًا في العرق..!"

قال الدكتور في ارتياح..

"حسن!.. أرجو منك ألا تقلق، وأن تثق بي أنت الآخر.. ولكن السؤال: لما لم تقابلني بالأمس.. ألم تر الحلم منذ يومين؟!"

قلت محرجًا..

"في الحقيقة كنت قد نسيت، وعندما اتصلت بي داليا بالأمس، اندهشت من كونها لم تزل على قيد الحياة، من ثَم تذكرت كل شيء، وقررت أن أراك!"

"وماذا قالت لك داليا خلال المحادثة!"

"أبدًا.. كانت قد أقرضتني كتابًا، وكانت تثرثر بشأنه.. كلام فارغ.. لا شئ مهم.."

فكر لحظات، ثم سألني..

"لديّ لعبة طريفة.. هل تشاركني إياها؟!"

"لعبة؟!"

"ليس الأمر كما تظن.. إنه أسلوب معروف، ومتبع في التحليل النفسي.. وهي لعبة شهيرة إلى حد ما.. نوع من التداعي الحر للخواطر، وهي..."

قاطعته في تسرع..

"أعرفها!"

ثم قلت محرجًا..

"آسف!.. أنت سوف تنطق كلمة ما، و أنا أذكر معناها.. أ ليست كذلك ؟!"

"ليس بالضرورة معناها.. المهم أن يكون أول ما يخطر ببالك.. بمعنى أنني عندما أذكر اسم رأفت مثلاً.. ليس بالضرورة أن تقول: أخي.. قد تتذكر فيلمًا شاهدته مع رأفت منذ سنوات، ولا يمكنك الجلوس معه، دون أن تذكر اسم ذلك الفيلم.. مجرد مثال.. هل فهمت!"

"وكيف ستعرف وأنت لم تشاهد الفيلم معنا؟!"

"إنها مهنتي.. والآن هل نبدأ؟!"

***

أخرج سمير من درج مكتبه ورقة بيضاء.. وتناول قلمًا، خط به كلمة واحدة، قبل أن يقول وهو يقلل من إضاءة المكان، دون أن ينظر نحوي..

"الحلم"

- أبيض!

"الحب"

- جنون!

"الحرب"

- خاسرة!

"العمل"

- عبادة!

رمقني الدكتور مبتسمًا للحظات، قبل أن ينفجر ضاحكًا..

"لسنا في محاضرة عن التنمية البشرية هنا!"

"أعرف، لكنها الكلمة الوحيدة التي طرأت بذهني!!"

"حسنًا، دعنا نكمل.. داليا!"

"مالها؟!"

ثم فطنت إلى مغزى الكلمة، وهممت بالرد.. إلا أنه أشار لي أن أتجاهل..

"مسؤوليات"

- ضمائر!

"أموال"

- B.M.W!

"داليا"

- فراشة!

"نيرمين"

-....!

سألني في توجس..

"لماذا سكت؟"

"أبدًا، لم أجد ما يقال!"

"حسنًا!.. د. سمير.."

كنت على وشك الإجابة، لكنني توقفت لسبب ما..

"لماذا قلت د. سمير، و لم تقل أنا؟!"

ابتسم في ثقة..

"لو قلت (أنا)، لما استطعت الرد.. والآن: هل تعدني أن تقول الصدق؟!"

"ألن تغضب؟"

"بتاتًا!"

"حسنًا.. د. سمير: العرّاب!"

رمقني مستفهمًا، فقلت..

" مارلون براندو.. هل رأيت الفيلم؟!"

ابتسم في صمت، وأطرق خجلًا..

"والآن، هناك سؤال.. منذ متى و أنت تحب داليا؟!"

"ومن قال إنني...؟!"

" رامز..!!"

" ok!.. ولكن لن يمكنني تحديد الفترة بدقة!"

"هل فاتحتها في الأمر؟"

"هل يضايقك إن غيرنا الموضوع؟!"

سكت للحظات ثم قال:

"حسنًا، فلنواصل.. رأفت.."

- مسكين!

"القتل"

- أحمر!

"الكوابيس

- مشنقة!

"الأصدقاء"

- روابط!

"نيرمين"

- "....!"

"تمام!.. الخناجر.."

- تحرير!!

"الموت"

- ظلام!

"يكفي هذا..."

قالها، ثم أعاد الإضاءة لطبيعتها الأولى..

"هل شعرت بالإجهاد؟"

"على العكس.. إنني مستمتع للغاية.."

تنحنح في تحفظ، ثم قال..

"أنت لم تروِ كل تفاصيل الكابوس، كان هناك حبلاً.. أليس كذلك؟"

تذكرت على الفور، فقلت..

"بالفعل!.. كان هناك حبل يربط معصمي بمعصم داليا.. وقد اختفى، عندما انفصلت عن الشجار، وذهبت لـــ رأفت..!"

"ممتاز.. وداليا، هل كان هناك حبل يربطها بـــ رأفت؟!"

"وكيف عرفت أنها تحب رأفت..؟! "

زفر في ضيق وقال..

"أرجو أن تكف عن (اللماضة).. أولًا: أنت قلت في بداية الجلسة.. ثانيا: أنا أعرف أصلاً منذ زمن.. ثالثا: ليس لسؤالي علاقة بالحب!!.. هلا أجبت من فضلك!"

"كانت داليا مربوطة بحبل آخر، لكنه لم يكن متصلاً بـــــ"رأفت"، بل كان متصلاً بكَ أنت!"

"شكرًا! "

ونهض من خلف مكتبه، وقال..

"الآن، يمكنني - بعدما تذكرت بعض التفاصيل الصغيرة - توقُّع أن الكتاب الذي منحتك إياه داليا، هو كتابي المفقود.. وهو بعنوان (مفاوضات إبليس).. أليس هو؟!"

رأفت

من جديد أنا هنا.. لا أملك القدرة على التحديد والتقييم بدقة.. لكنه غالبًا، نفس المكان.. الشارع المظلم الكئيب، الذي يخلو من الحياة.. ومصابيح الإنارة الصفراء المرعبة، التي يبدو أنها جُعلت لكي تخفي أكثر مما تظهر..

وعلمت أنه كابوس جديد.. لكني لم أفق كما يفترض.. لم أحاول التحرك، أو البحث عن أي شيء.. وظللت في مكاني واقفًا في انتظار بداية العرض.. إن كان هذا كابوسًا، فلسوف تبحث الأحداث عني، وتجدني الشخصيات.. فلا داعي إذًا لإهدار المزيد من الطاقة..

وكنت أفكر في هذا حين لمحتها لأول مرة..

إن للنسيان درجات..

هناك درجة ينمحي معها كل شيء له علاقة بالكيان المنسي، فيعود المرء لمرحلة تشبه الجهل الكلي من الأصل.. ذات يوم وجدت قصاصة من الورق، مدون بها رقم هاتف لأحد الأشخاص.. ولم يلفت نظري الاسم، ولم أتذكر الرقم.. ولكن تظل حقيقة أن الورقة كانت مكتوبة بخطي أنا باقية..!

وأدركت أنني كنت أعرفها ذات يوم.. ولا أعلم كيف ولا متى نسيت.. لكنني حين رأيت تلكما العينين العسليتين، وذلك الشعر الكستنائي الثائر.. أدرك شيء ما بداخلي أن تلك الفتاة هي نيرمين، التي أبحث عنها..

"هل أنت رأفت؟"

كانت واقفة على بعد مترين مني، وكانت أطول مني قامة، بسبب كعب حذائها العالي.. بينما يداعب ثوبها الحريري الأبيض وشعرها الطويل رياح غير محسوسة.. رياح من أجلها وحدها!

"وأنت.. أنت نيرمين!!"

"أخبروني أنني سأجدك هنا..."

قلت في لهفة..

"من هم الذين أخبروك.. وأين (هنا) هذا..؟!"

مسحت نظراتها الجوالة بسرعة ملامح وجهي في شيء من البرود والثقة والعملية.. وبدا كأنها تحاول تقييمي، كأنها تراني للمرة الأولى.. ثم استدارت، دون أن تحفل بمنحي أجوبة..

"تعال!"

وتبعتها في صمت وترقب، دون كلام..

كانت تسير في قوة، وهى تدق إسفلت الطريق بكعبي حذاءيها الواثقين.. ليس فقط وكأنها تعلم جيدًا إلى أين تتجه، بل وكأنها تتوق إلى الوصول بسرعة، إلى أين؟.. سأعرف حالاً..!

وفى مكان ما من الطريق، توقفت فجأة، وقالت..

"هنا!"

نظرت حولي، غير قادر على اختراق حجب الظلام ببصري لأكثر من عشرة أمتار.. وارتجف بدني، وشعرت بانقباض مفاجئ..

"هل سيأتون الآن؟!"

قالت بصرامة مخيفة..

" بالتأكيد!"

قلت متعلقًا بتلك القشة..

"من هم إذن؟!"

"كلهم!!"

قالتها، وكأنها تتعمد إغاظتي.. فقلت متوسلاً..

"هل كل هذا حقيقي؟"

للمرة الأولى بدا عليها الحزن، وقالت..

"لم يكن كذلك، لكنه صار حقيقيًا للأسف!"

لم أكن أدرك ما الذي ينبغي عليّ قوله، ووقفت أتأملها في غباء، في انتظار أي تفسير.. إلا أنها هتفت فجأة..

"لقد وصلوا!"

ومن بين المباني، ومن خلف أعمدة الإنارة، ظهرت الأشباح الثلاثة، وبدأت في التوجه نحونا ببطء وثقة.. وبالتدريج، بدأت أرى أنهم سمير، ورامز أخي، وداليا.. وكانوا يسيرون بطريقة مخيفة كالمغيّبين، أو كالآلات..

هل جن الجميع؟!

حتى في الكوابيس، لا تسير الأمور على هذا النحو.. كان الأمر يبدو وكأنه مشهد من فيلم رعب، وقد اقتحمت موقع التصوير بلا استئذان!

"مرحبا يا رأفت.. كيف حالك؟"

تكلم الجميع في آن واحد، على طريقة ممثلي المسرح التجريبي.. فجاء الصوت عميقًا، عالي التردد، يحمل تأثير الـــ (دولبي ستريو).. مما جعلني أقشعر.. كان يبدو حقيقيًا!

"نحن كلنا في انتظارك.. فقد حان الوقت...! "

انطلق رنين المنبه، مما جعلني أنتفض فزعًا.. حتى إنني كدت أن أنقلب من فوق أريكة الأنتريه العريضة، في حجرة معيشة داليا.. ووجدتني غارقًا في العرق البارد، وألم نابض يدق رأسي كألف مطرقة.. كان هناك كابوسا؛ لكنى لا أذكر حرفًا عنه..!

ونهضت مسرعًا، كي أخرس ذلك الوغد، قبل أن يصل صوته لحجرة نوم داليا، ويوقظها.. كانت العقارب تشير إلى تمام التاسعة صباحًا.. مما يعنى أنها لم تنم أكثر من ثلاث ساعات..

كانت تصر على البقاء بجانبي، في قمة يقظتها.. حتى يغلبني النعاس.. لعلني أحتاج لشيء تقدمه لي.. ولم تكن تصدق أنني لم أعد في حاجة للنوم لعدد كبير من الساعات كما كنت.. لا أعرف سبب هذا، لكنني الآن أكتفي من النوم بساعتين أو ثلاث يوميًا.. وكانت هي تتصورني لا أنام من الهم، أو من شدة الألم، مما كان يجعلها تصر أكثر على البقاء بجواري، تقرأ و تغني لي، وتحاول إضحاكي.. أو تطعمني قسرًا، كما لو أنني طفلها الصغير...

بالأمس فقط، تمكنت من إقناعها بأنني أستطيع إعداد قدح من الكاكاو، أفضل مما يمكنها هي.. وكانت فرصتي الوحيدة، كي أدس لها قرصًا منومًا، كانت في أمسّ الحاجة له، دون أن

تدري.. لا أرى في الموضوع نوعًا من الخيانة.. فلو لم أقم بذلك، لأصابها انهيارٌ عصبي محتّم.. والأدهى، أن يكون هذا بسببي أنا!

***

لا أعرف هل كنت قد بدأت أحب داليا حقًا، أم أنه نوع من العرفان تجاه معاملتها اللطيفة، وكرمها معي، واحتمالها لي طيلة يومين كاملين.. لقد كانت كما عهدتها دائمًا وأكثر، منتهى الرقة والعطف والصبر.. كانت نظراتها المفعمة بالحنان والحزن إلى وجهي الشائه، الذي قد وصل به الحال لدرجة غير محتملة من التآكل والفناء، تشعرني بتجدد الأمل.. وبأنني لست وحدي، كما كنت أحسب..

بل و أكثر من ذلك.. كانت تشعرني بالتجدد في خلايا وجهي الميتة.. تعيد إليها الحياة، وتساعدها على النمو، مما كان يمنحني مع كل نظرة، وجهًا جديدًا أجمل من ذي قبل.. وجهًا أسعد وأكثر وسامة مما يمكن لأي مخلوق أن يرى في مرآته..

ولقد قررت أنا أنها تعرف ما عليها فعله، فهي تثق في رأيها إلى أقصى حد.. وتعلم علم اليقين أنني سأتذكر كل شيء حين أرى تلك المدعوة نيرمين - فضلًا عن ثقتها في وجود نيرمين

أصلاً - ولم يكن في مقدوري إلا أن أشاركها الأمل، وأترك لها يدي، كي تقودني نحو الخلاص..

وحين قبلت دعوتها إلى مشاركتها تلك الشقة الصغيرة الجميلة، كي أكون تحت رعايتها طيلة الوقت.. كنت أعلم جيدًا سبب قبولي.. لقد كنت في أشد الحاجة لشخص يعلم الحقيقة.. شخص يقبل مساعدتي، ويعرف كيف يؤديها.. شخص، أوقن أن وجهي الشنيع لن يطارده كل ليلة في الكوابيس!

وكانت داليا..

لكنني لا أستطيع الجزم بسبب معين، يضطرها لتقديم مثل هذا العرض، الذي ينطوي على شجاعة نادرة قبل أي شيء.. أتمنى من كل قلبي أن أقول: (تحبني)...!

لكن لساني كان ولم يزل تحت سيطرة عقلي لا قلبي.. وهى المرة الأولى التي أشعر فيها بكراهية نحو تلك المزية.. لطالما اعتبرتها مزية وليست عيبًا.. ولكن ليس الآن.. أنا أعلم جيدا أنها ليست مغرورة ولا متعالية.. ولكن من حقها ألا تحبني، وألا تشعر بي..

وإن كانت قد قالتها قديمًا بشكل صريح، كما أشارت منذ يومين - وهو من نعم الله أنني لا أذكره - فقد يكون هذا قد حدث بسبب سطحية علاقتها بي وقتها.. وأنا لست مستعدًا اليوم - وبعد كل ما فعلتْ من أجلي - أن أعرّضها لمثل هذا الموقف من جديد.. لن أبتز كرم أخلاقها أكثر من ذلك.. ولست مستعدًا لسماع نفس الرد، وأنا في مثل هذه الحالة من شعوري نحوها وحاجتي إليها.. ولئن كان لساني لا يستطيع نطقها لأسباب منطقية، فحسبي أن قلبي لا يأبه بالمنطق، حتى وإن كان يخدعني، أنا لست طامعًا في المزيد..

***

كنت، يوم جئت إلى هنا، قد عدت إلى فيلا شريف، كي أشكره على كل ما قدم، وأودع العم حجازي، وأحمل كل متعلقاتي معي إلى هنا.. ولم أكن أرغب في إخبار سمير بأنني سأقيم في شقة داليا، كي لا أسبب لها حرجًا.. لذلك عندما سألني شريف إلى أين سأتجه، قلت إلى بيتنا القديم بالمنصورة.. أي كلام!

اتجهت نحو تلك الخزانة الصغيرة في حجرة المعيشة، حيث أضع حقيبتي، وتناولت منها أي شيء يصلح لارتدائه.. ثم

توجهت صوب الحمام، كي أغتسل وأتوضأ، دون أن أحاول إلقاء نظرة على مرآة الحمام الصغيرة.. وعمومًا لم أكن في حاجة إلى ذلك.. فمنذ زيارتي الأخيرة لعيادة سمير، لم أقم بحلاقة ذقني مرة واحدة حتى اليوم.. ليس بسبب كثرة الجروح في وجهي وعنقي، ولكن لأنها كفت عن النمو!

أخبرتني داليا إن هناك صبيًا صغيرًا، يعمل في محل الكوّاء بنفس الشارع، اعتاد أن يمر بها كل صباح، حاملاً معه ثياب الأمس نظيفة مكوية، ليستبدل بها ثياب اليوم.. وقد أسعدني هذا لأقصى حد، فلم يكن بوسعي تخيل داليا وهى جالسة إلى حوض الغسيل البلاستيكي الكبير، كي تقوم بعملية غسل جواربي وقمصاني، ثم تعليقها على حبل في شرفة دارها...!!

كان هذا مما يفوق احتمالي بمراحل..

لكن المشكلة أنها - بطبيعة الحال - من اعتاد استلام الملابس من الصبي، ومحاسبته يوميًا.. فما كنت أقدر على الخروج إليه بهذا الوجه، أو بمعنى أدق بلا وجه!!.. وتمنيت من كل قلبي إن جاء الصبي وتجاهلتُ طرقاته، أن يترك الأشياء أمام الشقة، ويدس الفاتورة في حلق الباب، مثلما يفعل محصّل الكهرباء..

***

بعد أن أتممت ركعتي الضحى - وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف - لم أجد ما أفعله.. هل أقرأ كما يفعل الناس في أوقات فراغهم؟!

في ذلك الشيء الرأسي - الذي تستخدمه داليا كحامل للتلفاز ومكتبة، وخزانة ملابس، وحافظ للأحذية - وجدت بعض الكتب.. فقه السنّة.. الخيميائي.. مئة عام من العزلة.. هاري بوتر والأمير الهجين.. ثرثرة فوق النيل.. السقا مات.. عبقرية عُمر.. وكانت هناك مجموعة من روايات رجل المستحيل موضوعة في ركن وحدها..

زفرت في ملل، فلم تكن بي رغبة حقيقية في تناول أي طعام.. ولا يوجد شيء هام في التلفاز.. سحبت واحدة من روايات رجل المستحيل - لصغر حجمها - واستلقيت على الأريكة أقلب في صفحاتها..

بعد قليل، سمعت رنين جرس الباب، نهضت فزعًا لا أدري ما ينبغي عليّ فعله.. هرعت نحو الحمام، حيث توجد صيدلية صغيرة، ومن حسن الحظ أن وجدت بها بعض (الشاش) الطبي.. توجهت نحو المرآة مضطرًا، وبدأت في تغطية وجهي بأكمله بالشاش كالمومياء، وحرصت على إظهار عيني الوحيدة

السليمة.. أرجو أن يفي هذا بالغرض.. وما زالت الطرقات مستمرة..

"من بالباب؟!"

"أنا ريشة، صبي الكوّاء.. أليست هذه - عدم المؤاخذة - شقة المهندسة داليا مندور..؟"

فتحت الباب، لألقى طفلًا صغيرًا، لم يتعد الثانية عشر من عمره على أقصى تقدير..

"ألف سلامة يا بيه!.. هل حضرتك زوجها؟!"

"لا، أنا أخوها.. هل من شيء؟"

"أين الأستاذة عدم المؤاخذة؟"

"و أنت مالك!"

لم يُبد ضيقًا أو خجلاً، بل قال بلهجة عملية..

"أصل كان فيه - عدم المؤاخذة - حساب متأخر.. ونحن آخر الأسبوع.."

وكان يلوح ببعض الفواتير بيمناه، بينما يده اليسرى تحمل الملابس التي تم تجهيزها..

"كم حسابك؟!"

" ٤٧ جنيه.. خلِّ سيادتك!"

تناولت منه الفواتير، وطالعتها على عجل..

" ٤٥ فقط أيها اللص!"

" يا بيه.. كلك نظر...!"

أخذت منه الملابس، ومنحته خمسون جنيهًا، وهممت بإغلاق الباب، إلا أنه عاجلني..

"لحظه يا بيه، لديّ خدمة لك.. إن كان (وابور الجاز) لديك ما زال يفعلها، فإن الأسطى عطوة كفيل بأن...!!"

"أي وابور جاز يا بن آدم أنت؟!"

أشار إلى وجهي الملتف بالشاش، دون أن يتكلم، فصفقت الباب بعنف في وجهه..

وجدت باللفافة بعضًا من ملابسي، بجانب ملابس داليا.. لذلك وضعتها كما هي على الأريكة لحين استيقاظها.. وعندما فكرت قليلاً، اكتشفت أن الصبي لم يرتعب من منظري.. بل تصور أنني تعرضت لنوع من الحرق، وكأنه أمر طبيعي.. وهذا جيد إلى حد كبير.. ربما يمكنني النزول إلى الشارع ورؤية البشر.. لا مانع من الجلوس إلى المقهى لتناول أي شيء.. المهم أن أرى النور، فقد مللت من ذلك الحبس الاختياري لأقصى

حد.. توجهت مرة ثانية نحو المرآة، لأتأكد من إحكام وضع الشاش على وجهي.. وبلا تفكير، خرجت وأغلقت الباب من خلفي، ولم أنس أن أدس في جيبي مفتاح الشقة.. فلو أنني تركت داليا (في حالها)، فلن تستيقظ قبل آذان الظهر..

***

عدت للمنزل بعد ساعة تقريبًا، وكنت أحمل بعض الأشياء في كلتي يدي، مما ساعد على إحداث بعض الضجيج عند فتح الباب وغلقه..

"داليا.. لقد عدت يا صغيرتي!"

ما زالت نائمة.. هذا أفضل!

توجهت نحو المطبخ، وتخلصت من آثار الشاش على وجهي.. ووضعت ما معي على منضدة هناك.. كنت قد قررت أن أصنع لها وجبة جيدة، كمفاجأة لها عند استيقاظها.. أعترف بأنني طباخًا ماهرًا إلى حد كبير.. وكان ذلك سيسعدها، بالإضافة لأنه سيجعلها تخفف من قلقها بشأني.. فلست ذلك الطفل الذي تتصوره!

في تمام الثانية عشرة، كان كل شيء معدًّا.. تمت المهمة بنجاح.. نسبة الخسائر لا تزيد عن ٥%.. ومن حسن الحظ

أنها كانت من نصيب الملوخية وحدها.. يمكن إضافة بعض الملح، ويمكن الاستغناء عن ذلك الطبق بأكمله، وبذلك تنتهي المشكلة..!

طرقت الباب برفق..

"هيا أيتها الكسولة!"

لا رد..

ترددت لحظات، قبل أن أفتح الباب عليها، وأشعل الأضواء.. كانت متكورة كالقطة، بينما الغطاء يصل حتى ذقنها.. و لم أر وجهها، إذ كان شعرها يغطيه تمامًا..

"استيقظي يا قطتي، الطعام مُعد وفي انتظارك.. بربك، لم يكن أكثر من مجرد قرص منوم..!"

لا رد.....!

اعتراني القلق، لكني لم أجرؤ على التقدم منها ولمسها.. وهرعت نحو المطبخ، وأخذت أفتش في سلة القمامة، عن علبة الأقراص الفارغة، التي وجدتها في صيدلية الحمام وكانت تحتوى بالأمس على آخر قرص.. ها هي ذي..

وشعرت وكأن تيار كهربي بقوة ألف فولت قد مر عبر جسدي في لحظة واحدة.. وسقطت العلبة دون إرادة مني.. بالفعل كان الأمر أكثر من مجرد قرص منوم..

لقد وضعت بيدي لـــ داليا سمّا في قدح الكاكاو..

لقد قتلت داليا...!!

"هيا بنا يا رامز...!"

قالها سمير وهو يلتقط مفاتيحه، ويضع هاتفه في جيب البذلة متعجلًا، وعلى وجهه بدت أمارات القلق.. فانتفض رامز واقفًا وقد اعتراه القلق..

"هل كان رأفت من يكلمك يا دكتور؟"

أجاب سمير، وهو يقوده نحو باب العيادة في خشونة..

"أجل!"

"ما الذي حدث بالله عليك؟!"

"مصيبة!"

***

كان رأفت جالسًا في سيارته أسفل بناية داليا..

لم يكن يبكي، ولم يصرخ، ولم يُبد أي انفعال.. فقط ارتفع معدل النبض لديه.. ووصل ضغط دمه إلى حد غير مسبوق من الانخفاض.. وبدا وكأنه موشك على الوفاة..

وحين قرر إخبار سمير بالأمر، كان يدعوه، لا لمشاركته المسؤولية فيما حدث، ولا لإبعاد الخطر عنه.. بل لفعل ما يجب

فعله أيًا كان.. ولو وجده يقدم عليه الآن وبصحبته رجال الشرطة، لم يكن ليقاوم أو يعترض، بل على العكس تمامًا.. لقد كان يرغب في الانتقام من ذاته بأي وسيلة، وإن كانت هذه الوسيلة هي إعدامه فورًا.. فقط كان يحتاج لوجود أي شخص يقدر على تولي الأمر..

وظل على صمته المذهول طويلًا، قبل أن يطلق - بصورة مباغتة - صرخة هائلة، وتنفجر عينه الوحيدة بالدمع، وهو يطرق زجاج السيارة الأمامي برأسه، كأنه عزم على تهشيم أحدهما..

ومن خلال المرآة، رأى بابي السيارة الخلفيين، ينفتحان ويدخل سمير ورامز إلى السيارة.. اتسعت عيني الأخير في رعب ولوعة، حينما رأى ما آل إليه حال أخيه، والتفت ببصره نحو سمير..

"فيما بعد يا رامز.. ليس الآن!"

وتوجه سمير بحديثه نحو رأفت، في توتر شديد.. بينما كان رامز جالسًا لا يفهم أي شيء، وقد علا وجهه تعبير مخيف..

"أين؟!"

أجاب رأفت، بعد لحظة صمت قصيرة بصوت عميق..

"لم تزل بالأعلى كما هي.."

"هل أبلغت؟!"

"ليس بعد.. ظننتك فعلت!"

"انطلق أيها التعس.."

أدار رأفت محرك السيارة، وانطلق بها ببطء..

"هل نذهب إلى قسم الشرطة؟!"

تنهد سمير، وقال متحسرًا..

"ليس الآن، لدينا الآن مهمة حتمية يجب تنفيذها أولًا.. انطلق بنا إلى (المهندسين).."

قال رامز في خفوت..

" هل سنذهب إلى المرسم..."

"ششششش!... أجل...!"

" رأفت.. هل تأكدت جيدًا من الوفاة؟"

"لقد كان سمّا يا سمير.. سُم!"

التفت رامز نحو سمير، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، قبل أن يتفجر منها الدمع الملتهب، وقال مذهولاً غير مصدق..

"هل ماتت داليا؟!!"

لم يرد سمير، ولاذ بالصمت..

انقض رامز على سمير بشدة، يمسكه من تلابيبه، وهو يصرخ في شراسة..

"أجب و إلا قتلتك.. أجب!"

" أجل!.. هلا تركتني الآن..؟!"

تحول غضب رامز إلى جنون مفاجئ، وظل يركل مؤخرة مقعد رأفت بمنتهى العنف وهو يصرخ..

"توقف.. توقف أيها الوغد.. لابد من أن أراها..."

لم يبد رأفت أي استجابة من أي نوع، وبدا وكأنه تحول إلى آلة بلا مشاعر، يتلخص سبب وجودها في الوصول إلى العنوان الذي أملاه سمير إياه..

"دعني أنزل أيها الجبان.."

وحاول توجيه لكمة خرقاء نحو سمير، تفاداها بسهولة..

"وأنت أخفيت عني الأمر، أقسم أن أمزقكما بأسناني.."

أغلق رأفت القفل المركزي للأبواب، حينما رأى أخيه يحاول فتح الباب، أثناء سير السيارة، وهو يواصل الصراخ في جنون..

"يكفي هذا..!"

قالها سمير في هدوء، وهو يقوم بغرس أحد المحاقن في عنق الفتى، ليهدأ وينام فورًا..

قال رأفت في آلية..

" أنت تعلم أنني لم أقصد ما حدث..."

واصل سمير الصمت..

قال رأفت مجددًا..

"هل تأكدت جيدًا من محتوى ذلك المحقن؟!"

بادله سمير النظرات عبر مرآة السيارة الداخلية للحظات صامتة..

وعلى وجنة رأفت، حفرت سيول الدموع الملتهبة من الوديان والأخاديد ما يكفي لتغيير جغرافية صحراء المكسيك...

ندم.. خوف.. يأس.. ذل.. ظلم.. إحباط.. حقد.. غل.. انتقام.. دماء تسيل...

ولولا وجود رامز وسمير معه، لجعل مقدمة السيارة تعانق أكبر شجرة في الطريق، وبأقصى سرعة..

"نحن على وشك الوصول للمدعوة نيرمين على ما أظن؟"

هز سمير رأسه إيجابًا، دون أن يصدر صوتًا.. فبادله رأفت هزة الرأس ببطء وروية، بينما عينه لم تجف بعد.. وفى نفسه ترددت كلمة لم ينطق بها لسانه..

"سأقتلك.. سأنتزع قلبك من بين ضلوعك بأصابعي العارية يا من أنت نيرمين.. سأقتلك..!"

***

ظل يقود لدقائق قليلة، بناء على توجيهات سمير المقتضبة.. وفى نهاية المطاف أوقف السيارة بجانب بناية كبيرة بأحد شوارع المهندسين..

كان الليل قد بدأ يخيم على شوارع القاهرة، مما منح المشهد انطباعًا عامًا يغلفه الانغلاق والكآبة.. فقد كان يفتقر إلى نشاط وزحام النهار التقليدي.. وفى نفس الوقت لم يكتسب بعد بهجة وجاذبية الليل المعتادين..

"هل هذا هو المكان المعني؟"

"افتح الأبواب، وانزل لتساعدني على إبقاء رامز واقفًا على قدميه..!"

ومن حقيبته، أخرج قرصًا ما، دسه أسفل لسان رامز.. وبعد لحظات بدأ الأخير في تحريك جفنيه، وهز رأسه بصعوبة، وقد دخل في مرحلة متوسطة بين النوم واليقظة..

"ألم يكن من الأفضل أن نتركه يستريح في السيارة ريثما نعود؟!"

"لن أغامر بترك أي شخص خلفي.. يكفينا ما حدث.."

انطلق رأفت في استسلام، وفعل كما أملي عليه.. وبعد أن تأكد من غلق السيارة جيدًا خلفهم، سار كل من رأفت وسمير تجاه البناية، بينما كان رامز بينهما، يترنح ويسير بصعوبة..

"هل تسكن نيرمين هنا؟!"

"لا، ولكن هذه البناية ملك لوالدها.. وهي تستغل قبوها كمرسم لها.."

"وهل سنجدها هنا؟!"

"تأكد من هذا...!"

***

"مرحبًا بكم، لقد خشيت أن تتأخروا عن الموعد.. ولكن ها أنتم!"

التفت الثلاثة نحو مصدر الصوت، الذي استوقفهم قبل الدخول إلى المرسم..

كلا..

لم تكن نيرمين.. بل كان صوتًا هادئًا عميقًا لرجل في منتصف العقد الخامس.. كان طويل القامة، على درجة من الوسامة، وكان شديد الأناقة.. وقد لاحظ رأفت في ثياب الرجل، وأسلوب تصفيفه لشعره الطويل الأشيب لمحة أوروبية ما، لم تتنافر مع ملامح وجهه ولون بشرته الشرق أوسطي.. وإن اختلفت تمامًا مع لهجته في الحديث، التي كانت مصرية خالصة، لا تشوبها شائبة..

"عذرًا.. هل تعنينا نحن؟"

تقدم الرجل نحوهم، غير مبال بتشوه رأفت، ولا بعدم اتزان رامز، ولا بتجهم سمير.. ووضع يديه في جيبي معطفه في ثقة..

"بكل تأكيد، لابد أنك رأفت.. ألست هو؟!"

هنا فقط تكلم سمير، وقد تخلص من وقع المفاجأة..

"مرحبا يا دكتور.. ولكني لا أذكر أنه كان بيننا موعدًا.. بالتأكيد بخلاف موعد كان منذ أسبوع تقريبًا، وأنت من تجاهله لا أنا!"

كان في صوته شيء من اللوم المغلف بكبرياء، جعل رأفت يسأل في قلق، متجاهلاً وجود ذلك الدخيل..

"من هذا يا سمير؟!"

"إنه الدكتور عدلي.. كان من المفترض أن يساعدنا..."

"وأنا لم أتأخر..! أنا هنا كما ترى..!"

قالها الدكتور، مقاطعًا سمير بلهجة هادئة، وهو يشعل سيجارًا، وينفث دخانه بنفس الهدوء.. ثم سأل بلهجة خاصة، وهو ينقل بصره بين الجميع، كأنه يعرف إجابة سؤاله مسبقًا..

"ولكن.. لماذا لا أرى بينكم المهندسة الجميلة داليا؟!"

سرى التوتر بين الجميع، وترنح رأفت، كأنه على وشك السقوط أرضًا..

"خسارة!.. لقد كانت أرق و أجمل و أسمى من أن ينالها هذا المصير المؤسف.. أليس كذلك يا سيد رأفت؟!!"

بدا على وجه رأفت تعبير غريب، هو مزيج من عدة مشاعر، كان أولهم الدهشة، و لم يكن آخرهم الخوف..

"هل تعرف؟!"

نطق بها رأفت وهو يرمق الدكتور عدلي بنظراته الثابتة المجنونة.. فوضع د. عدلي يده على كتف رأفت، وقال في رقة مشوبة بالأسى..

"بالتأكيد.. فأنا - دائمًا - أعرف!"

ومن جيب المعطف الداخلي، أخرج ورقة مطوية بدت كأنها مقتطعة من دفتر تقويم.. ومنحها لـــ رأفت في حزن..

"أعتقد أن هذه تخصك!"

تناولها رأفت مندهشًا، وقد بدأت رجفة شديدة في اجتياح بدنه..

"ما هذا؟!"

"إنها صفحة من مذكرات المهندسة داليا مندور.. وكانت قد طلبت مني منحك إياها، في حالة ما إذا حدث ما حدث..."

تهاوى رأفت جالسًا على الرصيف، وقد دخل في نوبة شديدة من البكاء والنشيج كالأطفال.. وكلا الطبيبين واقف بجواره يربت على كتفه، بينما رامز واقف يمسك برأسه كالمخمور..

"وهل كانت داليا تعرفك، لدرجة ائتمانك على شيء كهذا؟!"

"سوف تندهش إن عرفت إلى أي حد كانت تعرفني الفقيدة.."

شعر رأفت وكأنه قد انفصل عن كل ما ومن حوله، ولم يعد على وجه الأرض غيره وهذه الورقة..

وبدا وكأنه قد وقع فريسة لشعورين متضادين، كلاهما أقوى من الآخر.. أولهما هو فضول قاتل تجاه محتوى الورقة.. ترى ماذا كان آخر ما رغبت داليا أن أعرف؟!

وثانيهما خوف من أن يفتح الورقة ويقرأ ما بها.. وبذلك ينتهي آخر ما بقي له من تلك العزيزة، التي أنهى حياتها بيده..

ينتهي أسرع مما بدأ..

مثل صوت سمعه ذات مرة يتردد في الصحراء، وألفه وأحبه.. وظل ينتظر عودته مجددًا.. لكنه لم يعد.. ولم يعد باقيًا منه سوى صدى سريع الزوال..

وتأمل الورقة بين أنامله وضغطها.. ضغطها كأنما يطلب منها أن تتخلل ثنايا جلده، وتمتزج به، وتظل فيه للأبد..

ومرة أخرى تفجرت دموعه في غزارة، وقال مخاطبًا د. عدلي بلهفة شديدة، كأنه يتعلق بآخر أمل لديه بالحياة..

"ألا يمكن على الأقل، أن نجلس في مكان ونتحدث.. لندخل المرسم على الأقل!!"

"لن نستطيع دخول المرسم قبل أن تقرأ الورقة.. ولكن يمكننا الجلوس في سيارتك، أو في مقهى إن كان هذا يناسب الجميع.."

دلف الجميع إلى السيارة، وأضاء رأفت مصابيح الصالون، وصمت ثلاثتهم احترامًا لموقفه؛ إذ رأوه يفتح الورقة..

ببعض التردد، نعم.. لكنه فتحها بالفعل..

عندما فض رأفت الورقة، تبين أن هناك شيء قد سقط من بين طياتها.. مد يده يفتش في أرضية السيارة، حتى طالت أنامله ذلك الشيء.. كانت صورة ضوئية صغيرة الحجم لفتاة.. لم تكن داليا كما تصور في البداية.. بل كانت فتاة أخرى، متوسطة الجمال.. عسلية العينين.. على شفتيها الرقيقتين ارتسمت بسمة جذابة.. وحول رأسها التف إيشارب حريري، تبدت من تحته خصلات شعرها الكستنائي الناعم..

"من هذه؟.. هل يعرف أحدكم صاحبة هذا الوجه؟!"

كاد سمير ورامز أن ينطقا.. لكن د. عدلي عاجل الجميع وقال..

"لا أظن.. لكنها ليست نيرمين إن كنت تفكر في هذا.."

"هذا هو بالفعل ما فكرت فيه.."

وعاد للصمت مجددًا..

في بداية الورقة، التي يبدو عليها القدم، كتبت داليا باستخدام قلم عريض، على يسار السطر الأول:

"تــواريخ و أحداث"

وفى صمت، هبطت عيناه إلى السطر التالي:

" تاريخ مولده..! ٧/ ٨ / ١٩٧٩ "

قطب جبينه غير مصدق، يتأمل التاريخ.. إنه لا يذكر أنه قد أخبر داليا بتاريخ ميلاده في أي مناسبة من قبل..

ثم عاد يتابع المطالعة، وقد صارت أنامله في برودة الثلج.. كانت الورقة تمتلئ بالتواريخ الهامة بالنسبة لها، لكنها كانت تخصه هو بالذات بشكل أو بأخر..

يوم رأته للمرة الأولى..

بداية إحساسها بالحب تجاهه..

تاريخ خطبته لـــ نيرمين..!

أول حديث مطول بينهما..!!

أول مرة ابتسم لها..!

أول مناسبة يناديها خلالها باسمها مجردًا بلا (بشمهندسة)!

يوم علمت أنه كان يحبها...

يوم استضافها في بيته للمرة الأولى..

يوم استضافته في بيتها للمرة الأولى..

يوم قالت له (أحبك) للمرة الأولى...!

لم يصدق رأفت أنه كان هامًا وحيويًا إلى هذا الحد بالنسبة لها.. لم يصدق، لأنه كان يتهم نفسه بالطمع، حينما يفكر أنها كانت تعامله بهذه الرقة بسبب أنها تحبه.. ومن رحمة الله أنه لم يصدق.. ومن حسن الحظ أنها لم تذكر اسمه صراحة في المذكرة، بل كانت تشير إلى شخصيته دائما بالضمير (هو)، أو بضميره المتصل الغائب.. لكنه توقف قليلاً عند الملاحظة الأخيرة..

أولاً: هي لم تقل له إنها تحبه من قبل..

ثانيًا: كان التاريخ بجانب الملاحظة، يشير إلى تاريخ اليوم بالذات!

وهذا يعني استحالة الفرضية من أساسها.. فرضية أن تكون قد قالتها له أو لغيره.. فهي قد قضت نصف اليوم الأول نائمة.. وقضت نصفه الثاني.. قتيلة!

وامتلأت رأسه بالأسئلة الملحة.. لكنه آثر إنهاء قراءة الورقة أولًا..

كان من الملاحظ أيضًا، أن الورقة كانت موجودة منذ البداية.. وكانت الفقيدة تضيف إليها الملاحظات يومًا بيوم.. أي أنها لم تكتبها في مرة واحدة.. والسبب أن كل ملاحظة كانت مكتوبة بقلم مختلف عما عداه.. كما أن حالة الورقة كانت بادية القدم إلى حد ما. ولكن ما أدهشه أكثر، أن ذيل الورقة كان مكتوبًا بذات القلم العريض الذي كتب به العنوان.. وجاء فيه:

(لا تحزن على ما فاتك.. بل اصنع من جرح الماضي علاجًا للمستقبل، يكن حاضرك سعيدًا باسمًا!)

***

"لقد كانت تحبني!"

"ومنذ البداية.."

قالها د. عدلي في خشوع، وبصوت أقرب للهمس..

"وما الذي أتى بصورة نيرمين، إلى هذه الورقة؟"

"سبق و أخبرتك أنها ليست..."

"ولكنها بالفعل نيرمين.. لقد تذكرت!"

بدا على كل من سمير والدكتور، انفراجة أسارير طفيفة.. بينما كان رامز شاردًا بذهنه في ملكوت الله..

"إذن فقد تذكرت.. مرحى!"

"لماذا ضللتني في البداية؟"

"كنت أريد التأكد من أنك ستتذكر وحدك، عند انتهائك من قراءة الورقة.. وها قد نجحت!"

وضع رأفت الورقة والصورة في جيب قميصه، وصمت منتظرًا التفسير.. فقال الدكتور..

"هل تمانع في كلمة على انفراد يا رأفت؟!"

ظل على صمته للحظات، ثم غادر السيارة، ومن خلفه خرج د.عدلي..

"أرجو أن تظل هنا يا د.سمير، ريثما نعود.. ضع رامز بين عينيك من أجلي!"

"لا تخف، لن أدع أي مخلوق يمسسه بسوء.. حتى وإن كان ذلك المخلوق هو أنت يا رأفت..!"

"هذا هو العشم.. هيا بنا يا دكتور..."

***

"لا أرى أن نبتعد كثيرًا.. إن شكلي...!!"

"لا تخف، لن يراك أي شخص أبدًا.. أنت معي!!"

ووضع الدكتور ذراعه على كتف رأفت، كأنه صديق قديم.. وسارا جنبًا إلى جنب..

"قل لي يا رأفت.. هل تؤمن بنظرية (الشر المطلق)؟"

رمقه رأفت بدهشة، قبل أن يسأل..

"هل لهذا السؤال علاقة بموضوعنا؟"

"بالتأكيد.. إنه الموضوع ذاته!"

فكر حينًا قبل أن يجيب..

"لا أعرف على وجه التحديد ما هي نظرية الشر المطلق.. لكني مؤمن تمامًا أنه لا شيء مطلق على وجه الأرض.. ولا

حتى في باطن الأرض.. من المستحيل استخراج كتلة من الماس لا تعلق بها الشوائب والأتربة.."

"أنت إنسان حكيم عاقل.. سؤال آخر من فضلك.. ما هو شعورك تجاه صديقك د. سمير، لو عدنا إليه الآن، ووجدناه قد قتل رامز شقيقك الأصغر؟!"

رمقه رأفت باستياء، فهز الطبيب رأسه، بما يعني أنها مجرد فرضية..

"لا أعرف.. ولكن أظن أن قطع عنقه لن يكون احتمالاً صعبًا.. إن كنت تعرف دائمًا كما تزعم، فأنت تعرف أنني لم أعد أملك ما يمكن أن أخسره.. أليس كذلك؟!"

"جميل جدًا.. والآن هل يمكنك وصف شعورك تجاه ذاتك بعد قتلك لـــ داليا، التي أحبتك كل هذا الحب؟!"

توقف رأفت مجددًا، ورمق الدكتور في خواء.. لكن الأخير استحثه على إكمال المسير..

"إن الحياة بأكملها منظومة شديدة التعقيد، لكن قوامها هو مجموعة من الاختلافات في وجهات النظر.. وفي رأيي الخاص أن كل الحروب والحصارات والمذابح على مر التاريخ، قد حدثت بسبب سوء تفاهم بشكل ما!

عندما قرر الممثل الأمريكي مايكل دوجلاس الزواج من الفاتنة كاترين زيتا جونز، لم يمكنني - منطقيًا - اعتبار هذا حدثًا سعيدًا، على الرغم من أن هذا هو ما يحدث عادة، وبكل أسف..

ربما كان أحدهما أو كلاهما سعيدًا بهذه الزيجة، وربما لا.. ولكن من المؤكد أن هناك مئات ومئات من القلوب، على مستوى العالم - ومن الجنسين - قد تحطمت لدى سماعها هذا الخبر!

لذلك يحتم ميزان المنطق، أن يعتبر العالم هذا الحدث كارثة على كافة المستويات..!!

إن ما تعرضت له - يا عزيزي - لم يكن لعنة.. بل كان في الواقع ثلاث لعنات!.. لأن هناك ثلاثة قد طالعوا الكتاب.. واليوم فقط تمكننا من كسر أولاهن.. وهي المختصة بنسيانك لـــ نيرمين، والمسئول عنها كانت داليا.. وأعتقد أنك قد حققت انتقامك منها.. هل تنكر أن شعورك حيال ذاتك قد تغير بعد هذه المعرفة؟!"

"...........!!"

"عندما فعلت داليا ما فعلته، قررت أن يكون مفتاح اللعنة هذه الورقة بالذات.. فقد كانت تعلم أنها ستموت يوم كسر لعنتها.. وكانت تريد أن توصل لك رسالة مختصرة: (أنا فعلت هذا لأنني أحبك.. ولا يهمني أن أموت أو أحيا، ما دمت قد علمت بحبي لك..)

وها أنا قد منحتك المذكرة بناءً على طلبها.. وعندما قمت أنت بقراءة العبارة الأخيرة، تذكرت نيرمين فورًا.. هكذا تم الأمر!"

"هل يعني هذا أنك ذهبت إلى بيتها اليوم، ووجدتها ميتة، ثم قمت بقطع الورقة من دفترها، وجئت بها إليّ؟"

"ليس بالضرورة، ربما كانت معي منذ البداية.. ما علينا!"

***

كان من الملاحظ أيضًا، أن الورقة كانت موجودة منذ البداية.. وكانت الفقيدة تضيف إليها الملاحظات يوم بيوم.. أي أنها لم تكتبها في مرة واحدة.. والسبب أن كل ملاحظة كانت مكتوبة بقلم مختلف عما عداه.. كما أن حالة الورقة كانت بادية القدم إلى حد ما..

***

"عندما طلب سمير رؤيتي منذ أسبوع، كنت على وشك المجيء إليه.. لكنه تلفظ بعبارة ما جعلتني أفهم.. أذكر أنه قال:

" لا توجد أيادٍ بيضاء في هذا المنجم!"

وهى عبارة مكتوبة بالنص في كتاب (مفاوضات إبليس) - ذلك الكتاب المسئول عن كل هذه الفوضى - وهو ما يعنى أنه قد طالع الكتاب.. لذا راودني الشك أن له دخل بما أصابك، حتى وإن كان هذا قد تم رغمًا عن إرادته.. فلم أحب أن أشركه في خطتي لمساعدتك، لكي لا يحتاط لها الجزء الخفي المسيطر في داخله، ويفسد كل شيء..

وبالفعل كنت محقًا.. أنت تعلم أنه ابن عم نيرمين.. لكنك لا تعرف إلى أي حد كان يحبها..!

لقد تعامل د. سمير مع خبر ارتباطك بها، بمنتهى التسامح، وكان مثالاً حيًا لما ينبغي أن يكونه الجنتلمان..

لكن الجانب المظلم بداخله كان له رأي آخر، عندما تغلغلت قوة الكتاب إلى روحه.. فلم يقبل إلا أن يراك مشوها باليًا، يفر لمرآك الناس..

وعلى شرط: أن يتم هذا على يد نيرمين ذاتها.. وكان هذا هو الشق الثاني من اللعنة..

"......!!"

"إن هذا الكتاب مسئول عن العديد والعديد من اللعنات، على مر العصور.. ولكن صدقني - وأنا أعلم جيدًا عما أتكلم - في حالتك أنت بالذات، كان الأمر مختلفًا ومعقدًا لأقصى حد.. فعندما قرأ الكتاب كل من سمير وداليا ورامز، تحرك الشيطان بداخل كل منهم..

فالأول كان عاشقًا لخطيبتك!.. والثانية كانت تعشقك أنت.. بينما كان رامز متأثرًا بـــ داليا، كارهًا لـــ نيرمين، راغبًا في إبعادها عنك، رحمة بك، ورغبة في إسعاد حبيبته.. ومن ثَم صنع الكتاب شبكة قوية من الشر، تربط فيما بينه وكل نصف شرير للثلاثة الآخرين، بينما كانت أنصافهم الطيبة ساذجة، وجاهلة بما يدور في أقبية نفوسهم وعقولهم..

وهكذا.. تلاقت الأهواء، واتفقت الأهداف مع اختلاف الوسائل.. وهكذا وقعت أنت ونيرمين بين أنيابهم..

كم أنت مسكين يا عزيزي!.. ولكن ما العمل..؟

هذا أخيك.. وذاك صديقك.. هل تقتلهما كما فعلت بـــ داليا المحبة المخلصة البريئة؟!

مع العلم أن الأخيرة كانت ذكية بما يكفي، فقد صنعت مفتاحًا لكسر لعنتها، وهو هذه الورقة بجيبك.. والتي أضفت لها الصورة من عندي كي أتأكد.. لكن الآخرين لم يفعلا.. كانا ساذجين كبيرين.. وبذلك ظلت لعنة كل منهما معلقة إلى الأبد..

هل تعلم معلّقة بماذا..؟!

معلقة بأن يسيلِ دم صانعها على يد ضحيتها.. فهل أنت لها؟!

هل تستطيع؟!

يمكنك التنحي إن أردت، وهذا من حقك لكن...

هل تظل طيلة ما بقى لك من عمر، مشوهًا ضائعًا منبوذًا.. وحيدًا؟!

هل تظل تحت رحمة فنانة تشكيلية مجنونة؟!

هل فكرت أين يمكن أن تأتي ضربة فرشاها التالية؟!

ربما عينك الوحيدة الباقية.. ربما عنقك!

من يعلم..

لقد اختار كل منهما نفسه.. لم يؤثرك أحد.. فهل ستكون على هذه الدرجة التي تتخيلها من الإجرام، إن عاملتهم بالمثل؟!

أعلم أن هذا صعب عليك.. شقيقك.. صديقك.. كل من بقي لك في هذه الدنيا التي لا ترحم..

ولكن لا تنس أنك إن اخترت الإبقاء عليهم، فإنك سوف تبقيهم لنفسك..

وفي هذه اللحظة، يجب أن تسأل هذا السؤال: أين (نفسك) هذه أصلاً.. وماذا قد بقي منها؟!

إن اخترت نفسك وخطيبتك، التي باعت صديقتها المخلصة واشترتك أنت، أو حتى اخترت نفسك فقط..

وأصبحت وحيدًا، جديدًا، نضرًا، مكتملاً، نعم.. لكنك وحيد..

فهل تظن أنه ليست لديك الفرصة كي تبدأ من جديد، مع أناس جدد...؟!

إن ما يحدث مرة واحدة من النادر أن يتكرر، ولكن لو حدث وتكرر مرة ثانية، فأعلم أنه لابد واقع للمرة الثالثة ولا محالة.. هل قرأت الخيميائي؟!"

تأمله رأفت بذات النظرة الجوفاء..

تأمل الشعر الأبيض، والبسمة الآسفة، والدبوس الماسي المعلق في ربطة العنق.. وانتابه شعور غريب بأن العالم قد صار كومة من التراب، يغلفها فيض من الدخان الأسود الكثيف..

"والآن سوف أتركك قليلاً، حتى يمكنك التفكير بصفاء.. على أن تقابلني في المرسم.. سأنتظرك، فلا تتأخر..."

ثم استدرك عندما همّ رأفت أن يتكلم..

"ستظل تحت الحماية، لن يراك أحدهم.. إلا لو أردت أنت!"

***

وضع رأفت كفيه في جيبي بنطلونه وطفق يتأمل الخلق في برود.. الكل يروح أو يغدو من حوله، دون أن يمنحه أيهم اهتمامًا. هذه الطفلة الصغيرة، التي تركض وتحاول اللحاق بأبيها وهى تبكي.. هذا الفتى، الذي يعانق كفه كف فتاة حسناء خجلى في سعادة.. تلك المرأة، التي تصرخ في سائق التاكسي، لأنه طلب أجرة أعلى مما في حقيبة يدها.. هذا الرجل الذي يهمس في هاتفه، وقد قطب جبينه باهتمام وخطورة.. وكأن كوكب الأرض على وشك الفناء..

وفى بطء، رفع رأفت كفه، ليتحسس ملامح وجهه، في البداية متوجسًا.. ثم راح يكتسب الثقة شيئًا فشيئًا..

وجالت أصابعه بين ثنايا فروة رأسه المسلوخة، ومرت على عينه المطموسة، وعلى أنفه العظمي، وعلى كل جرح، وكل ندبة، من رأسه إلى العنق.. وعلى أسنانه المخلوعة وعلى أثر أذنه المفقودة..

وتصاعد شعور عميق بالاشمئزاز إلى روحه.. تصاعد من معدته إلى حلقه بحركة سريعة مؤلمة، وقد أوشك على إفراغ أمعائه على وجوه المارة.. وبرغم دموعه، التي انهمرت مدرارًا من عينه الوحيدة.. لم يقدر على منع نفسه من الابتسام..

داليا، أيها الغالية العزيزة.. هل أنت ناقمة عليّ؟.. أقسم أن هذا حدث رغمًا عني.. ربما أخطأت أصابعي علبة المنوم..

لا أدري، ولكني لست من قتلك.. لست أنا..

إن ما يحدث مرة واحدة من النادر أن يتكرر.. ولكن لو تكرر ثانية، فأعلم أن الثالثة واقعة لا محالة...

كلا، لم أقرأها من قبل.. لكن داليا فعلت.. لقد رأيت الكتاب لديها.. إنها تعلم..

ترى لو أحياها الله من جديد، وسمعت هذه الكلمات، هل ستقدر موقفي.. أو - على أقل تقدير - لن يكون الأمر بمثابة صدمة لها، إن عرفت بما أنا مقدم عليه؟!

وللمرة الثانية، تهاوى جالسًا على الرصيف.. وقد أبت ساقاه أن تحملاه..

وبكى.. بكى كثيرًا جدًا، وتمنى على الله لو يراها لحظة واحدة فقط.. لحظة تكفي لأن يضمها إلى صدره.. ويعتذر لها.. ويسألها أن تسامحه.. وتستغفر له الله..

وتنتظره..

ليس هذا بكثير عليه، بعد كل ما لاقاه من حرمان وظلم..

"لكنك لن تستمع إليه يا رأفت.. ربما كان من السهل أن أعود إليك.. ولكن المستحيل هو أن أتخيلك قاتلاً.. من ستقتل؟!.. أهلك؟!"

قال رأفت في مرارة، بينما تجلس بجانبه داليا في هدوء..

"لكنك لن تعودي يا داليا.. أنت تعلمين أن هذا لن يحدث!"

شعر بيدها تحوط كتفيه في حنان، ورأسها يستند إلى صدره في استكانة..

"ولكنني هنا، وأنا بالفعل أعلم كل شيء...!"

استدار رأفت إليها ببطء، وتأملها غير مصدق..

" أنا بجانبك حقًا.. أنا لم أمت أيها الأحمق!!"

"هل تعنين أن د. عدلي هذا...."

"بالتأكيد!.. إنه المسئول عن كل ذلك.. إنه شيطان يا رأفت.. شيطان حقيقي!"

"والأقراص التي..."

"لقد خدعتك يا رأفت، اعذرني.. لقد كنت أعلم أن هذا الوغد لا يهتم لموتي أو لحياتي.. كل ما كان يهتم به، هو شعورك بالندم والحسرة لأنك قتلتني.. لقد رأيتك وأنت تضع لي القرص المنوم في القدح.. وهكذا تظاهرت بشربه وبالنوم، حتى نمت أنت.. ثم نهضت وأبدلت العلبة في سلة القمامة..!"

كانوا يجدّون السير باتجاه المرسم.. فتوقف رأفت فجأة، ورمق داليا في غير تصديق..

"أنت فعلت هذا؟!"

توقفت بدورها، ورفعت كفيها، كأنه ضبطها متلبسة بالسرقة..!

"لقد كدت أن أموت من القلق، خفت أن تلمسني، وتكتشف نبضي أو تنفسي..!"

"لقد خشيت أن ألمسك.. كنت خائفًا!"

ظلا يتبادلان النظرات لدقيقة كاملة.. قبل أن تسأل داليا في جزع مفاجئ..

"كم الساعة الآن.. بسرعة!"

"العاشرة والربع.. لماذا؟!"

"من الجيد أنني تذكرت.. رأفت!"

"نعم..!"

" أحبك.. أحبك جدًا..!!"

قالتها، ثم اتجهت نحوه، لتطبع على شفتيه قبلة طويلة، رأته بعدها متجمدًا كالتمثال، وعلى وجهه نقشت أمارات الذهول..

"الملاحظة الأخيرة، في المذكرة الخاصة بكسر اللعنة...!"

"إنك..."

ظلت الكلمة عالقة بحلقه للحظات، كأنه أصيب باختناق.. قبل أن يرفعها بذراعيه عن الأرض، ويضمها إليه في أكبر حضن ممكن..

"... مجنونة!"

"بالتأكيد!!"

تركها تلقي برأسها على صدره، وتستكين للحظات.. قبل أن ينتبه فجأة لخطورة الموقف..

"حسنًا!.. لنسرع إلى المرسم أيتها المجنونة، لعلنا نجد ما يمكننا فعله بصدد اللعنة..."

"بالمناسبة، لقد كذب عليك مرة أخرى.. لقد صنع سمير مفتاحًا للعنته، وكذلك فعل رامز.. لكن الدكتور أخفى عنك الأمر.."

"حتى أضطر لقتلهم..."

"هكذا أنت تفهم.."

***

كان باب المرسم مفتوحًا، ولم يكن أي من سمير أو رامز في السيارة.. تراهم بالداخل؟!

دفع رأفت الباب بحذر.. ودخل متوجسًا، ومن خلفه داليا..

"حمدًا لله على سلامتك يا حسنائي.. لم أتوقع ظهورك بهذه السرعة!"

قالت داليا بلهجة قوية متحدية..

"لا تنكر أنني تفوقت عليك يا دكتور، واحتطت للأمر جيدًا.. والآن لم يعد بإمكانك المساس بي!"

"حقا قلتِ.. لكن الأمر لم ينته بعد.."

تلفت رأفت حوله، يبحث عن نيرمين في أرجاء المكان..

"لن تجدها يا صديقي، إنها هنا ومعها اللوحة والألوان والريشة.. لكنها واقعة تحت تأثير حماية تشبه حمايتك.. لن يمكنك رؤيتها، إلا لو أرادت هي!.. وما أغناها عن رؤيتك لها، لو أردت رأيي!!"

قال رأفت في هدوء..

"جميل.. ولكن أين مفاتيح كسر اللعنات.. أعلم أنها معك!"

قال الدكتور متبسمًا، وفي هدوء أشد..

"حقًا هي معي، ولكن هناك اختبار صغير.. مجرد اختبار لابد من اجتيازه أولًا.."

وصمت للحظات، مستمتعًا بنظرات الترقب والقلق على وجهي داليا ورأفت.. في النهاية قال..

"لنفترض أنك قد وقعت في مأزق مُربك نوعًا.. المفاتيح، أو سلامة كل من سمير ورامز.. فأيهما تختار؟!.. لاحظ أنك لو

اخترت المفاتيح، فسيمكنك استعادة كل شيء.. وستكون بريئًا من دم أخيك وصديقك..

ولكن لو اخترت استعادة سمير ورامز.. فلتنس أمر المفاتيح للأبد.. وستكون الطريقة الوحيدة لاستعادة وجهك، والتخلص من خطر نيرمين.. أنت تعرف!"

ثم استدرك بسرعة..

"لا تتسرّع، وفكر جيدًا.. لأن الاختيار من مرة واحدة.. ثم يمكنك أن تجد ما اخترت خلف هذا الباب.."

وأشار بذراعه نحو باب جانبي، في أحد أركان المرسم.. لم يتذكر كل من رأفت وداليا، هل رأياه هنا من قبل أم لا..

ركضت داليا نحو رأفت، وتعلقت بذراعه في خوف..

"أنت تعرف ما عليك اختياره يا رأفت.. أنت لن تضحّي بأهلك.."

أحاطها بذراعه في قوة، وقال مخاطبًا الدكتور..

"لن يمكنك خداعي مرة أخرى، لن أخضع لهذا الابتزاز.."

رفع الدكتور كفيه، وقال في استسلام..

"كما تحب، أرجو أن تتبعني إلى ما خلف هذا الباب.. ولكن استعد جيدًا.. فلن تحب ما ستراه.."

واتجه من فوره نحو الباب، ومن خلفه رأفت وداليا.. توقف، وقال في حزم دون أن يستدير..

"وحدَكِ.. أرجو أن تنتظر آنستي العزيزة هنا.. لن نتأخر!"

***

خلف الباب.. لم تكن هناك حجرة، ولم يكن الباب مخرجًا للطريق العام.. لقد كان مخرجًا لعالم آخر على أقل تقدير!.. ولم يصدق رأفت ما رآه..

كانا فوق سطح ما يشبه هضبة عملاقة، تطل على المحيط عن ارتفاع هائل هائل.. ومن تحت أقدامهم اكتست الأرض باللون الأخضر من جميع الجهات.. وفوق كل ذلك، كانت السماء الزرقاء الصافية تغلف كل شيء.. سماء منتصف النهار، التي تمرح بين سحبها أسراب من النوارس، والتي لا تنفك تصدر أصواتًا، وتهبط نحو المياه، ثم ترتفع من جديد..

مكان في منتهى الجمال.. وأجمل ما فيه أن كل المساحات مطلقة.. المياه.. السماء.. الأرض..

هذا كل شيء..

"هل اعتقدت أنني لن أحب هذا المشهد؟!.. لقد أخطأت بالتأكيد.. والآن أين نحن؟!" .

قالها رأفت مذهولًا من جمال المشهد، دون ذرة اندهاش واحدة، بسبب هذا الانتقال العجيب..

"من المدهش أن يكون سؤالك الأهم هو ختام عبارتك.. عمومًا هذا عالم افتراضي، وضعته أنا بصورة تناسب الموقف.. أرجو أن تتقدم معي.."

وقاده حتى حافة الجبل، حيث الهاوية الرهيبة، التي تفضي إلى المياه، والصخور العملاقة البارزة بالأسفل، على عمق مئات الأمتار..

وهنا لاحظ شيئًا، اندهش لكونه لم يلاحظه من قبل..

كان هناك، على الحافة، كيانا معدنيا عملاقا، يشبه حرف (T) لاتيني، مصنوع من الحديد.. وكان ذراعيه طويلين للغاية، وفي نهاية كل طرف – على الجانبين – بدا طرف حبل غليظ، معلق به صخرة عملاقة، يبلغ وزنها نصف طن علي الأقل..

ومع اقترابه من ذلك الشيء المهول، تبين أن حبل واحد مربوط إلى الصخرتين من كل جهة، على امتداد القضيب الحديدي الطويل كالميزان.. المشكلة أنه في نهاية الصخرة الأولى

كان هناك قفصا، معلق بداخله كل من سمير ورامز.. وفي نهاية الصخرة الثانية، تعلق صندوق صغير، من المؤكد أنه يحتوي على المفاتيح..!!

"هكذا إذن؟!"

"هو ما ترى.. لقد أحببت أن أوفر عليك مشقة الموقف، لكنك من أصر.. يمكنك إدارة العمود بيدك، وتحديد الثقل المناسب حتى تصل به إلى السطح الآمن، حيث نقف.. وبالتالي سيكون الثقل الآخر بين المحيط والسماء.. ولن يمكنك قطع الحبل وتحرير أحدهما، دون أن يسقط الآخر مع الحجر الثقيل نحو المحيط، حيث لن يعود للأبد.. ما رأيك في هذه اللعبة؟!"

***

كانت داليا على وشك الجنون.. حاولت فتح الباب، فلم تستطع.. ومن ثم ظلت تبكي، كطفلة فقدت أمها في السوق..

"أين أنت أيتها الحقيرة؟!.. أنت سبب كل ما حدث.. اظهري نفسك لحظة واحدة فقط، وأقسم أن أمزق عنقك بأسناني!"

وظلت تصرخ، وتبعثر كل شيء يقع في حيز حركة يديها أو ساقيها، دون جدوى.. وبعد لحظات انفتح الباب، وظهر -

من خلال فرجته المظلمة- تحديد خارجي لجسد الدكتور عدلي ومعطفه الطويل.. ومن خلفه دخل رأفت. وأول ما نظرت إليه داليا كان كفيه.. لقد كانا خاليين..

وفى النهاية، دخل كل من سمير ورامز، يتوكأ كل منهما على ذراع الآخر، ويرتجفان بصورة رهيبة.. واندفعت داليا نحو رأفت، واحتضنته بشكل جنوني..

"كنت أعرف أنك ستفعلها.. كنت واثقة.."

"كان هذا رهيبًا..!"

نطق بها سمير وهو يطلق زفرة الخلاص.. وربت على كتف داليا في امتنان، دون أن يتكلم.. بينما وضع رامز وجهه في الجدار، وقد دمعت عيناه، وبدا وكأنه يفضل لو كان أخوه قد تركه يسقط في المحيط..!

"إنه شجاع حقا.." – قال د. عدلي – ".. لقد توقعت بنسبة كبيرة أن يفعل ما فعل.. لكنه برغم ذلك ما زال يمتلك......."

وفى لحظة واحدة، طار كل من سمير ورامز، إلى أحد المقاعد بصدر المكان.. وظهرت من العدم سلاسل وأصفاد معدنية، أحاطت بهما، وقيدتهما جيدًا إلى المقاعد..

".... فرصة أخيرة!"

استشاط رأفت غضبًا وثورة، وصرخت عيناه دون كلمة..

"لا تقلق، إنها أصفاد مطيعة.. سوف تنفك عنهما تلقائيًا إن طلبت منها ذلك..!"

ثم أخرج من جيبه الخنجر الفضي، الذي كان ملكا لـ سمير.. ووضعه في كف رأفت..

"فقط في حالة إذا ما غيرت رأيك!"

قالها، ثم ابتسم، فاردًا ذراعيه للجميع..

"كانت أيامًا طيبة، وداعًا!"

وفى لحظة، خلت منه الأبصار، لقد اختفى وتركهم إلى الأبد..

***

لدقائق طويلة، خيم الصمت على المكان.. وظل رأفت يداعب الخنجر في يده.. وبدا وكأنه قد استقر على رأي ما..

كانت داليا واقفة كالصنم، في انتظار قرار رأفت.. وكان رامز على نفس حالته من اليأس.. فلم يُبد أي إشارة تفيد الدهشة بسبب عودة داليا.. فقط ظل يبكي في صمت، وتمنى لو ذبحه رأفت أولًا..

"ماذا تنتظر يا رأفت؟.. فقط تمنَّ أن ينفك ذلك القيد.. لقد بدأت أشعر بالخدر في ذراعي!"

نطق بها سمير في مرح، بدا أقرب ما يكون للـــتوسل.. فنظر إليه رأفت نظرة جعلت الدم يتجمد في عروقه دون كلمة..

"إنه لوغد حقير.." – استحال رجاء سمير إلى صراخ ثوري جنوني – "من المسئول عن إطلاق هذا التيطان من عقاله؟!"

رمقه رأفت في دهشة مبتسمًا.. وتكلم للمرة الأولى منذ خرج من تلك التجربة الأخيرة..

"أ لا تعرف حقًا من أطلقه؟!"

وتقدم نحوه بخطوات وئيدة..

"إنه أنت يا عزيزي، أنت من أطلقه!"

"هل ستفعلها حقا؟!.. لا أصدق، ليس أنت!"

اتسعت ابتسامة رأفت، حينما وصل لمقعد سمير، ثم قال بهدوء..

"حقًا، إنه ليس أنا!!"

ثم رفع خنجره نحو ذراع سمير ببطء..

"عزيزتي داليا..!"

التفتت إليه الأخيرة وهي مرتاعة فاقدة للنطق..

"أرجو أن تديري وجهك نحو الجدار.. فلن تودي مشاهدة هذا!"

بعد مرور ستة أسابيع

نهض رأفت من نومه فزعًا، غارقًا في العرق البارد.. ومن فوره التفت إلى المرآة الصغيرة على الكومودينو بجانب الفراش.. وعندما وجد نفسه يرمق عينيه الواسعتين، ويتأمل وجهه الوسيم المكتمل.. أطلق تنهيدة خلاص، وهو يجفف عرقه بيد مرتعشة..

"ماذا هناك يا رأفت؟.. هل هو الكابوس ذاته مرة أخرى؟!"

نطقت بها داليا، وهي تنهض جالسة بجواره، وتناوله كوبًا من الماء..

وضع رأفت الكوب جانبًا، وقال..

"هو ذاته.. في كل ليلة أستفيق قبل أن أقتلهما بلحظة واحدة.. لو استمر الحال هكذا سوف أجن حتمًا.."

رنت إليه زوجته قلقة للحظات، قبل أن تقول في تردد..

"هل ترى أنك بحاجة لاستشارة طبيب نفسي؟!"

رمقها ساخرًا في مرارة دون رد..

"أعتقد أن د. سمير لديه حل أو آخر لهذه المشكلة.."

"أو لم تجدي سوى سمير؟!.. ألم يكفك كل ما لاقيناه معًا في الفترة الأخيرة؟.. لا أعتقد أنه سيرحب برؤيتي أساسًا!"

"لا أظن.. على الأقل يمكنك الاتصال به، بحجة الاطمئنان علي صحته.. منذ أسابيع وأنت لم تكلمه كلمة واحدة.."

فكر قليلاً قبل أن يتناول هاتفه، ويتأكد من أن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا ببضع دقائق..

"حسنًا!.. لنر.."

***

" صباح الفل يا دكتور.. كيف الحال؟!"

"أخيرًا أيها الـــوغد!.. ثلاثة أسابيع عسل؟!.. متى ستخرج للأضواء مجددًا..؟"

"قريبًا بإذن الله.. كيف حالك،وكيف حال ذراعك.."

"بخير، لقد تم التئام الجرح والحمد لله.. والفضل يرجع لله سبحانه وتعالى ثم لك.. فلو لم تواتك هذه الفكرة، لكنا أنا وأخوك في خبر كان!"

"بل لولا هذا لما استعدت وجهي ثانية للأبد.. هل ظننت أنني سأقتلكما؟!"

"في الواقع نعم!"

"أشكرك على حسن الظن.. لقد تذكرت أنه قال لي: إن اللعنة معلقة، بأن يسيل دم صانعها على يد ضحيتها.. لكنه لم يشر للقتل مطلقًا!.. والمرة الوحيدة التي ذكر فيها القتل، كانت بصيغة السؤال لا الأمر!.. وفكرت أنه إن كان الثمن هو بعض قطرات الدماء، فيا لها من صفقة!.. هكذا لم يخذلني الله.."

"لكن لا تنكر أنني - بخبرتي كطبيب نفسي عبقري - من أقنع نيرمين بأن تظهر نفسها..!"

"حقا قلت.. ولولا وضَعت الخنجر في كفها، وجعلتها تجرح رامز، لظلت تحت سيطرته للأبد.. بالمناسبة كيف حالها الآن؟"

"لقد تخلّصت بالفعل من سيطرة هذا الوغد، وتخلصت من الفرشاة واللوحة إلى الأبد.. لكنها ما زالت تعاني صدمة نفسية عنيفة من جراء التجربة.. ربما تخرج من عندي خلال أسبوع.. ورامز.. أما من جديد بشأنه؟"

"أبدًا.. آخر ما قاله - قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة، ليعمل مع شريف في مجال السياحة - إن لديه العديد من المشاكل، ليس لها حل سوى الابتعاد.. وكان متأكدًا من أن هذا العمل سيبعده بالتأكيد عن كل شيء.. ولكن هل البعد هو الحل حقا؟!"

" أظن ذلك.. المهم: هل مازال يعاودك ذلك الكابوس المزعج، أم أنه توقف أخيرًا ؟"

صمت رأفت لحظات، تأمل خلالها داليا، التي تبسّمت له في مودة..

"انس أمر ذلك الكابوس.. لقد انتهى للأبد...!"

القاهرة – ٢٠٠٨

عاش رأفت عبد الفتاح حياة رتيبة مملة للغاية، لا يمارس أي نشاط سوى عمله كمصمم للدعاية، ولا يعرف في الدنيا سوى أهله وبيته ومقر عمله وشاشة التلفاز.. ولذلك لم يكن أحد يتصور أن تنقلب حياته على هذا النحو الرهيب.. كتاب مجهول المصدر، هبط فوق رأسه بلا مقدمات، محملا بلعنات من قاع الجحيم، أصابته هو وكل الأبرياء الذين جمعتهم به روابط الصداقة والحب والدم في لحظة واحدة وبلا سابق إنذار.. لعنات مزقت كل روابط الصداقة والحب.. ولم تترك لهم إلا الدم.

رواية بورتريه رواية رائعة ذات أسلوب أدبي مبتكر.. وهى تشبه في طريقة تقديمها إلى حد ما رواية فتحي غانم الرائعة (الرجل الذي فقد ظله) حيث يعاد تقديم الشخصية الواحدة في كل فصل من فصول الرواية من وجهة نظر مختلفة. ولكنها تزيد عنها بهذا الإطار المشوق، وجو الإثارة المحيط بتلك الشخصيات والأحداث.. فهي مزيج من الرومانسية والخيال العلمي وأدب الرعب، قام الكاتب بصهرهم ومزجهم ببراعة في بوتقة واحدة ليقدم لنا هذا العمل الأدبي المبدع الذي يستحق عليه التحية والتقدير، فهي رواية متميزة ومشوقه للغاية وتثبت أن كاتبها يزداد تفوقا ورسوخا من رواية إلى أخرى، وأنه قد ثبّت لنفسه مكانا في هذا النوع من الأدب الذي تفتقر إليه مكتبتنا العربية.

شريف شوقي

محمد عبد القوي مصيلحي، روائي وقاص مصري من مواليد شبرا [illegible] 1986. درس الحاسب الآلي، وكتب العديد من الروايات، والقصص القصيرة [illegible] التي نشر معظمها على صفحات الإنترنت، ومسرحية واحدة. [illegible] مجموعة القصصية (طريق النعناع) في أكتوبر 2011، وشارك في تجربة [illegible] بعنوان (أين أشيائي)، برواية قصيرة تحمل ذات الاسم وهي تحت الطبع.



The Cover Design By:
M.A.Mosil7y
Based On a Painting By:
Ayman al-Maliki